الإسلام وحضارة العصر

أزمة العصر - الدين والدولة والمجتمع - إيمان العصر
الإسلام والعلم - الإسلام والحياة - الإسلام وحرية الإرادة
الإسلام والأخلاق

أزمة العصر

وبعد فإننا فى حاجة إلى التعريف بروح الإسلام فى عالم تعصف المادية الغربية فيه بكل قيم الماضى وتراثه الروحى العظيم كحاجتنا اليوم، فإذا كان الغرب المسيحى قد برم بالدين وثار عليه وتنكر له فلأنه قد عجز عن أن يوائم بين الدين والحياة وبين الدين والعلم. وحين عجز عن التوفيق بينهما وضع البذرة النامية فى أزمة الإنسان المعاصر ، وهى البذرة التى توشك أن تعصف بحضارة العصر وتدمر تراث الماضى الباهر، حتى قام من أبنائه من ينذر بالكارثة القادمة ويعمل لتوقّيها بالبحث فى أسبابها : فمنهم من ردّها إلى عجز الفلسفة عن ملاحقة التغير المستمر فى معارفنا وفى محيط حياتنا ومنهم من ردّها إلى بوار العقيدة الدينية، وآخرون إلى خلل التوازن بين التقدم المادى والتقدم الروحى، أو إلى انهيار الفردية أو ضمور الحرية أو ابتعاد ثقافة العصر – ويعنى الثقافة الغربية – عن جذورها القديمة.

ومهما يكن من طابع الأزمة التى يعانيها الغرب والتى تلفح العالم بسياطها بما للغرب من سيطرة على العلم الحديث والثقافة والعصرية، فإننا فى الشرق ، وفى الشرق الإسلامى بنوع خاص، لنا أزمتنا الخاصة التى تتصل بوجودنا كما تتصل بتراثنا الثقافى وقدرتنا على التكيف مع روح العصر النامى الدائم التغير وبما تتأثر به ثقافتنا من ثقافة الغرب الغالبة.

فما هو موقفنا من الحضارة السائدة، وما هو موقعنا الحقيقى فى هذا العالم ؟ وهل نستطيع أن نقدم للإنسانية بعض ما قدمه الإسلام فى فجره الأول حين خيم الظلام على أرجاء العالمين الفارسى والرومانى ؟

هل نستطيع أن نقدم للعالم زاداً جديداً من القيم والفضائل وأسلوباً للحياة يتقبله العالم ويرضى عنه حين يرى فيه إنقاذاً له من أزمته التى يتردّى فيها ؟

وهل نجد فى تراثنا الروحى وفى قيم ديننا العظيم وفضائله ما يهدى الإنسانية إلى الخير والحق ويجنبها الخطر الذى تتردى فيه ؟

وهل نرى فيها ما يزوّد نهضتنا بالقوة، ويهدى خطانا إلى الصواب ويضىء آمالنا وأحلامنا بنور اليقين ؟

وهل نجد فى ديننا ما ضل عنه الغرب حين حجبت المادة عنه سرّ الوجود الأعلى فنرى على نور العلم سر الوجود الأعلى ؟

لقد كفرت الحضارة السائدة – حضارة الغرب المسيحى – بالدين ، وعدته مسياجاً يحجب الحقيقة عن العقل وعائقاً يحول بين العقل وبين التحرر والأنطلاق. ولما ثارت المعركة

بين السلطتين الزمنية والدينية كان انتصار السلطة الزمنية فى النهاية قضاء على ما كان لرجل الدين من سلطة على النفوس قبل أن تكون قضاء على ما كان له من سلطان على الناس. فلما ضعف شأن رجال الدين لم يجدوا لسلطانهم لواذاً إلاّ فى التحيز للملكيات المطلقة التى استمدت سلطتها من الحق الإلهى للملوك، فلما ثارت الشعوب على استبداد الملوك وطغيانهم امتدت ثورتها إلى الكنيسة ورجال الدين بل والدين نفسه، فإذا كانت الثورة الفرنسية قد عصفت بملكية البوربون فقد عصفت فى الوقت نفسه بالكنيسة الفرنسية ذات التقاليد العريقة وبامتيازات طبقة الاكليروس التى لم تكن لتقل أبهةً وجاهاً ونفوذاً عما كان للبلاط الفرنسى من الأبهة والجاه والنفوذ وقضت على ما كان للدين ورجاله من توقير فى نفوس الجماهير.

ولما جاءت ثورة العلم وقفت منها الكنيسة موقفاً عنيداً لم يجن على العلم بقدر ما جنى على الدين، فأصبحت النظرة الأوروبية للدين عامة أنه عائق أمام التقدم وأنه سياج يحجب العقل عن رؤيه الحقيقة، فلا مجال للتقدم ما لم يتحرر الفرد من وقر الدين.

كانت هذه هى النظرة العامة لمن تحرروا من الدين وكفروا به، وامتدت نظرتهم تلك إلى كل دين آخر، فالدين أياً كان، خرافة لا يقبلها العقل.

أما الذين ظلوا على إيمانهم بالمسيحية، وقاموا بالتوفيق بينها وبين العقل، فقد لفحتهم نيران التعصب بالطعن على الإسلام وتجريحه، ووجدوا فى ركود العالم الإسلامى فى الوقت الذى تفتحت فيه الحياة الأوروبية واثمرت حضارتها الحديثة حجةً للطعن عليه ورميه بالجمود والتأخر. ففى مطلع هذا القرن نشر هانوتو، وزير خارجية فرنسا، حينذاك مقالاً فى صحيفة «الجورنال» الفرنسية عرض فيه بالإسلام ونسب إليه علّة التأخر والتواكل وفتور الهمة وكان الفيلسوف الفرنسى «ارنست رينان» قد قال مثل ذلك فى دراسته لابن رشد ومذهبه، وانبرى لها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ففنّد أقوالها، وشرح لها موقف الإسلام من المدنية والعلم فليس بينه وبينها من تناقض ما كان بينها وبين موقف رجال الاكليروس من العلم والمدنية ونسبوه إلى المسيحية.

وبعد ذلك بسنوات طعن كرومر على الإسلام واتهمه بالجمود، وانبرى له الكتاب يفنّدون أقواله ويردّون عليه.

وسواء كان موقف الثائرين بالدين والخارجين عليه فى أوروبا أو موقف المسيحيين المتدينين من الإسلام، فإن موقفهما معاً إنما ينبعث بين الفريق الأوّل من نظرتهم إلى الدين عامة وحكمهم على الإسلام بما حكموا به على المسيحية، وبين الفريق الآخر من تعصبهم

الدينى. وكلتا النظرتين قائمة على الجهل بالإسلام ومعرفة حقيقتة وموقفه من العلم والتقدم.

فالإسلام لا يقف عائقاً دون التحرر والتفكير والتأمل والنظر ولا يضيق بالعلم بل يحث عليه ويطلبه. وفى الحديث الشريف «اطلبوا العلم ولو بالصين» ومن البديهى ألا يكون علم الصين دينياً، وإنما المقصود به العلم الطبيعى، وفى حديث آخر «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» ما يشير إلى نمو المعرفة واستمرارها.

وإنّا لنرى الإمام محمد عبده يجول فى صفحات التاريخ فيقول: «آخذ بيد القارىء الآن، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان. وأقف به وقفةً بين يدى خلفاء بنى أمية والأئمة من بنى العباس ووزرائهم، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم، وكلّ مقبل على عمله، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده فى يده يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضى الحكيم. وكل يرى فى صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به. وهكذا أدخل به بيتاً من بيوت العلم. فأجد جميع هؤلاء سواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون والإمام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل:

«لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربّته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشىء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شىء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرًا أشبه بباطن منه، ولا باطنًا أشبه بظاهر فيه» ...

«بل أرفع بصرى فأجد الإمام أبا حنيفة أمام الإمام زيد بن على - صاحب مذهب الزيدية من الشيعة - يتعلّم منه أصول العقائد والفقه، ولا يجد أحدهم من الآخر إلّا ما يجد صاحب الرأى فى حديثه ممن ينازعه فيه اجتهادًا فى بيان المصلحة - وهما من أهل بيت واحد - أمر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة، وهى العلم».

حتى يقول:

«فهناك يشير القارئ المنصف إلى أولئك المسلمين وأنصار ذلك الدين، ويقول: ها هنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته، ها هنا يوصف الدين بالكرم والحلم، ها هنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية، عن هؤلاء العلماء والحكماء تؤخذ فنون الحرية فى النظر، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان، أو بين العقل والقلب كما يقولون..».

« يرى القارئ أنه لم يكن جلاد بين العلم والدين، وإنما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شيء من التخالف فى الآراء شأن الأحرار فى الأفكار الذين اطلقوا من غلّ التقييد وعوفوا من علّة التقليد.. ».

ومازالت أزمة الدين فى الحضارة الأوربية قائمةً لا تحلّ، والخلاف بين المتدينين والملحدين مستمر والجمهرة الغالبة من الناس بين الفريقين لا أقول حائرة وإنما نبذت الدين واستغنت عنه بالدنيا، فإن بقيت له بقية فى النفوس فمن قبيل الشكل دون الجوهر ومن قبيل الإقرار الشفوى دون العمل.

إلّا أن الإنسان مما حمل من تراث ماضيه، ومما وقر فى أعماقه من صلته الخفيّة بعالم علوى لا يراه بقدر ما يثور به وجدانه، مازال ينشد الرؤيا الواضحة لتلك الصلة الخفية بينه وبين خالقه، ومازال ينشد فيها العون والهداية، فقد خلق الإنسان ضعيفاً وإنه ليستمدّ فى ضعفه العون من خالقه، وقديماً صنع لنفسه صناً يلوذ به من الخوف المجهول، فإذا نبذ عقيدةً من العقائد فلأنه لا يرى فيها ملاذ روحه ولا يجد فيها حلاً لمشكلات حياته.

وأزمة العصر ليست أزمة الانطلاق من الدين والتحرر منه، وإنما أزمته هى فى البحث عن ذاته فى عالمه ومعرفة صيرورته حين تتوارى ذاته فى العالم الآخر، وهو فى حاجته إلى الأمن واليقين وفى حاجته إلى مقابلة التحدى الذى يواجه حياته فى حاجة لأن يواجه يقينه بالمعرفة التى توفّق بين العقل والروح.

وهى أزمة تصنعها الدولة ويصنعها المجتمع ويصنعها تشابك العلاقات والنظم الاجتماعية وتصنعها الغريزة حين تتحرر من عقالها فتنطلق كما تنطلق بالسائمة إلى حيوانية بشعة نراها تمثل ظاهرةً من الانحلال والتحرر من قيم الماضى كنوع من التعبير عن الذات.

وهى أزمة الشك والقلق الذى يعصف بالإنسان مما يحيط به ومما ينتظر مستقبله ومما يؤول إليه مصيره.

وهى أزمة الإنسان الذى يلقى بنفسه فى جحيم الآلام ويفتك بغيره من أبناء جنسه بغية طمع لا يتحقق.

وهى أزمة المعرفة الحقّة واليقين الثابت الذى يقود الإنسان إلى الحق والخير والجمال.

وهى أخيراً أزمة التوافق مع الواقع الحىّ ومع الصلة العليا التى تربط الإنسان بوحدة الكون فى قانونه الأبدى.

ولعلّنا فى دراستنا للإسلام وروح العصر نستطيع أن نجتلى ما يمكن أن يقدمه ديننا الحنيف لحلّ أزمة العصر وهداية الإنسانية إلى طريق تقودها إلى مدنية أسمى بتوفيقه بين الروح والعقل وبين الفكر والواقع وبما ثبت فى نفس الإنسان من إحساس بالحق فى حياته الجارية.

الدين والدولة والمجتمع:

لعب الدين فى تاريخ المجتمعات السياسية دوراً كبيراً لا يدانيه فيه أى عامل آخر. وقبل قيام المجتمعات السياسية كان الدين فى الجماعات التوتمية ممتزجاً بالحياة الاجتماعية متصلاً بغرائز الفرد وتفكيره أشدّ اتصال. وكان التوتم فى حياة الجماعة أصلاً لوجودها وللصلات التى تربط بينها والتى تعدّ فى المجتمع التوتمى أقوى من صلات الأسرة. فإذا انتقلنا إلى مجتمع أكثر تقدماً كمجتمع القبيلة نجد أنّ الملوك المؤلهين يمثلون الامتداد الطبيعى لرؤساء العشائر التوتمية، وكانوا رؤساء دينيين تنتهى إليهم الرئاسة عن طريق خصائصهم الدينية التى يتناقلونها بالوراثة إلى الابن أو الأخ وابن الأخ إن لم يكن للرئيس من صلبه ولد، وتتمثل هذه الخصائص فى توتم العشيرة التى يرأسها، وفى معرفة الأسرار الدينية وطقوسها العديدة، وفى بلوغه سناً تؤهله لرئاسة محافل العشيرة وطقوسها.

ثم كان التطور الاجتماعى الأكثر تقدماً، تطوراً فى الدين والأخلاق قبل أن يغدو تطوراً فى التركيب الاجتماعى وحين نشأت الدولة فى مصر القديمة – وهى أقدم مجتمع حضارى فى التاريخ – نشأت فى رحاب الدين، وكانت شعائر الملكية ورسومها شعائر ورسوماً دينية، وكان الملك المؤلّه فى حياته والإله بعد مماته، وكانت المجتمعات المجاورة فى الهلال الخصيب وفى أرض الرافدين مجتمعات دينية تمتزج فيها طقوس الدين بالحياة الاجتماعية كما تمتزج فى السلطة السياسية سلطة الملك وسلطة الكاهن الأكبر، وكان الدين قوام الدولة فالملك يقيم عبادة الآلهة ويرعاها ويحرس البلاد ويكفل رخاء الأهلين. وكما كان فراعنه مصر وملوك ما بين النهرين كان أباطرة روما أرباب الامبراطورية ، وإن كان الأباطرة الأرباب أرباباً سياسيين لا أرباباً إلهيين كما كان ملوك الشرق، ولم يكن للإغريق آلهة من الملوك ، وكان الدين عندهم نظاماً أخلاقياً أكثر منه لاهوتياً تغلفه الأسطورة والخيال أكثر مما يغلفه السحر والطقوس.

ولما حلّ عصر الإيمان وبعثت ديانات السماء، ضرب الدين على الشعب اليهودى عزلةً مريرة وعنصرية حادة، وطبع حياتهم بطابع خاص لم يتحرروا منه حتى اليوم، وحين راحوا ينشدون إقامة دولة، ويتطلعون إلى ملك، كانت عنصريتهم تقضى عليهم وتدمرهم فى النهاية، وأصبح المجتمع اليهودى مجتمعاً مغلقاً على ذاته لا يستطيع التحرر مما غذته به التوراة والتلمود من فكر عسير. بينما انطلقت المسيحية تبشر بملكوت السماء، فلما أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية استأثرت الكنيسة المسيحية بسلطان الدين والدنيا،

وأصبحت هى السلطة الفعلية الحاكمة والمتحكمة فى سلوك الناس وفى ضمائرهم، فحلت التبعية لمملكة السماء محل المواطنة الرومانية، ولم تعد روما القديمة التى وصفها «فرجيل» بأنها «ظئر الآلهة الفريجية على رأسها تاج من أبراج تطوف بعربتها مدن فريجيا بذريتها الإلهية وقد احتضنت بعض أحفادها من أهل السموات العلا» وأصبحت «روما الزانية أم البغايا التى سفكت دماء القديسين والشهداء».

ولم تمض بضعة قرون حتى أشرق الإسلام بلألاء باهر غمر سماء الجزيرة العربية كما غمرت أضواء المسيحية مدن الجليل من قبل. وكانت بلاد العرب خلواً من أى سلطان للدولة بينما كانت فلسطين أيالة رومانية، فلما انتشر رسل المسيحية يبشرون بملكوت السماء كان العالم الرومانى ميدان دعوتهم فاصطدموا بالدولة، وكان انتصارها فى صمود مبشريها ومعتنقيها لعسف الدولة وتنكيلها بهم، حتى آن لها أن تنتصر بعد ثلاثة قرون من ميلاد المسيح حين خال لقسطنطين أن الصليب - وهو رمز المسيح وإله الشمس على السواء - بشيره بالنصر، فأعلن حمايته لها، ولم يمض طويل وقت حتى أصبحت ديانةً رسمية للدولة.

ولم يواجه الإسلام ما واجهت المسيحية من عسف الدولة وطغيانها. فلما تكونت الجماعة الإسلامية الأولى استطاعت أن تحمى نفسها وتدفع عن وجودها وتنزل بكل من يتعرض لها أو يهددها العقاب الزاجر، فكانت السرايا والغزوات، ثم الوقائع التى كسبت فيها النصر على مشركى مكة ويهود المدينة تأميناً لها وإعلاء لشأن العقيدة. ولم تمض بضع سنوات حتى امتد سلطان الإسلام شرقاً وغرباً، فأقام فى مدى ثلاثين عاماً دولةً أهلّت على الدنيا بنور اليقين.

وفى الوقت الذى علا فيه نجم الدولة الإسلامية فاجتمعت فيها حضارة العصور الوسطى، وغدا المسلمون حماة الحضارة الانسانية وبناتها الأفذاذ، كانت الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت إلى قسمين: شرقية، وغربية. وظل القسم الشرقى بنجوة من عارات القبائل الجرمانية المتبربرة حفيظاً على شعائر الحكم الرومانى ونظم الدولة. أما القسم الغربى فكان مصيره مختلفاً، فانهارت الإمبراطورية فيه تحت ضغط الجرمان وضرباتهم المتوالية وحملت الكنيسة وحدها عبء المحافظة - ما أمكن - على تراث الحضارة القديم فى عالم آل السلطان فيه لأولئك البرابرة المحدثين، وكانت البداية لمسئولية حملتها طوال العصور الوسطى، فأخذت تستقل بشئونها وما لبثت أن استحوذت على سلطان الدين والدنيا معاً. وبقيت الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية خاضعة لسلطان الإمبراطور لا تجرؤ على مخالفة التقاليد الكنسية الأولى، فاتسمت بالمحافظة والجمود وبقى للإمبراطور فيها سلطانه الأعلى.

وبينما احتفظ الإسلام بجوهرة النقى، ولاذت الكنيسة الشرقية بالتزمت وغلبت عليها

بيروقراطية الدولة ونظامها القانونى، كانت الكنيسة الغربية قد هجرت الأسلوب العقلى للحضارة الهيلينية، وأقامت عالما من تصور القديس أوغسطين يقوم على الزهد والتجرد اللاهوتى، فقد خلق الله الدنيا متاعاً عابراً والأخرة للمتقين خالدين فيها أبداً وما الدنيا إلّا دار شرّ وقلق لا منجاة منها إلّا بنور الهدى، فمن اهتدى فله الجنة ونعيمها المقيم، ومن غوى فإلى النار وبئس القرار، وما لبثت أن نادت بسلطتها فوق أية سلطة أخرى فأصبحت - كما يقول فيشر - هى «الإمبراطورية فى قالب كنسى» ودان لها عالم العصور الوسطى فى الغرب لألف عام قادمة.

وصاغ الدين عالم ذلك العصر وحضارته فى الشرق الإسلامى والغرب المسيحى، ولكنه كان عالماً متباينا فى جوانبه تباين ما بين الإسلام والمسيحية فى النظرتين العقلية والدينية فهما وإن كانتا فرعى ديانة واحدة اكتملت فى تطورها رسالة السماء، إلّا أنهما كانتا متباينتين فى ظروفهما ونشأتهما فليس بينهما - إذا استثنينا عقيدة الأبوة الإلهية فى المسيحية - ثمة خلاف أساسى، كما يقول سيد أمير على، «فهما فى جوهرهما دين واحد، وكلاهما وليد القوى الروحية المتشابهة فى الإنسانية».

فالمسيحية «احتجاج صارخ على المادية الصارمة السائدة بين الرومان» والإسلام «ثورة على الوثنية العربية المتدهورة وعلى تقاليد العرب وأوابدهم». إلّا أن المسيحية ظهرت بين أقوام أكثر استقراراً وحضارةً من أهل الجزيرة العربية لهم حكومة منظمة فكانت المساوىء التى تحاربها أخف نسبياً فى وطأتها بينما ظهر الإسلام وسط قبائل وعشائر متأخرة فكان عليه أن يقاوم كل ما تأصل فى نفوسهم من حب الأثرة وحب الذات والتشبث بالخرافات القديمة.

وقد ظل الإسلام محتفظاً بنقاء جوهره وعقيدته. ولعل ذلك بسبب نشأته بعيداً عن المؤثرات الحضارية المجاورة وإن كنا نعتقد أن اكتماله كان السبب الأول فى بقائه نقياً فلم يكن فى حاجة إلى الاقتباس أو التزود بما يكمل نقصه، وأنه قضى فى البداية على كل فكر سابق عليه عند العرب، وأقام مجتمعاً جديداً لا صلة له بالمجتمع القديم فى مثله وأخلاقياته وتقاليده بل وفى مجرى تفكيره العام، إذ قام على تفكير عقلى متوازن بعيدًا عن التجريدات الغامضة وشريعة يقبلها المنطق ولا يجد فيها الرجل البسيط ما يجاوز عقله أو تفكيره أو يناقض طبيعته الإنسانية. بينما نشأت المسيحية فى عالم مترع بالثقافات العديدة وفى بقعة تلاقت فيها شتى التيارات الفكرية والفلسفية، وكان من اليسير أن تنجو من تأثيرها لولا أن داعيتها العظيم الرسول بولس كان قد تشرّب الفلسفة اليونانية فى مدارس الإسكندرية فمزج ما بينها وبين المسيحية فى جوهرها الصافى، وتحولت على يديه إلى ديانة أخرى منذ ابتعدت عن موطنها الأصلى وأصبحت ديانة بولس - كما يقول سيد أمير على - ولم تعد

ديانة عيسى، فقد كانت الوثنية القديمة فى طريقها إلى الانهيار فى الوقت الذى هيأت فيه فلسفة اليونان والإسكندرية العالم الرومانى لتقبل فكرة الإله المتجسد، خالق العالم، والجوهر المولود قبل كل الدهور، فتأصلت هذه الفكرة فى مسيحية بولس، وكانت المسيحية الجديدة - كما يقول - نتاج حضارة عاشت قروناً قبل المسيح وبعد، وأصبحت أقرب ما تكون إلى الفلسفة منها إلى الدين السماوى.

وفى هذا ما يفسر رأى فيشر فى انتشار المسيحية بين الرومان إذ يقول: «إن التحوّل عن الوثنية إلى المسيحية لم يكن انتقالاً إلى جوٍّ غريب تمام الغرابة أو شعوراً بانقلاب مباغت مفاجئ، بل كان تحولاً رفيقاً فى كثير من التدرج الشعورى والعاطفى، إذ شابهت طقوس المسيحية وأسرارها المقدسة طقوس وأسرار الديانات القديمة كما تضمنت تعاليمها تعاليم الأفلاطونية الحديثة، ثم إن القول بوجود وساطة بين الله والناس كان أمراً مألوفاً عند الفرس وأهل الأفلاطونية الحديثة على السواء، وإن الثالوث فكرة دينية مستمدة من الحقيقة القائلة بأن الثلاثة هى العدد التام هذا فضلاً عن أن الزهد والفقر والنشوة الروحية والقنوت لم تكن جديدة على أهل الديانات القديمة، كما أن فكرة الآخرة وما حوت من جنات ونعيم وسعير وجحيم، لم تنفرد بها المسيحية وحدها بل أجمع أصحاب متراس وديانته الفارسية وأصحاب الفلسفة الرواقية فى اليونان على أن مصير العالم إلى الفناء بالنار وبئس القرار».

كما يقول: «إن ثقافة الكنيسة الرومانية الغربية تأسست على مزيج متعادل من الأناجيل المسيحية والكتب اليهودية المقدسة بالإضافة إلى الثقافة التى ظلت باقية فى المدارس القديمة برغم زوال الوثنية وأفول العالم القديم، وهذا المزيج المتعادل هو الذي طبع الحياة العقلية بغرب أوربا أوائل العصر الوسيط حين كانت الكنيسة وحدها هى الحفيظة على الكتب ونسخها».

ثم وقع الإسلام فيما وقعت فيه المسيحية، ولكن بصورة أخرى، وإن بقى جوهر عقيدته على صفائه الأصيل فلم يتعدّ ما أصابه الشكل إلى الجوهر، ولم يؤثر تعدد المذاهب والفرق على الأساس الذى قامت عليه العقيدة ولعل ذلك كان سبب خلوه من الكهانة والطقوس الدينية وطغيان رجال الإكليروس، فقد ظلّ رجل الفقة الإسلامى متجرداً للبحث والاجتهاد وتقنين الشريعة بعيداً عن سلطان الدولة ولم يكن صاحب سلطان أو حكم، وكثيرًا ما عاف مناصب الدولة وعفّ عنها حتى لا يكون لها على أحكامه سلطان. ولم يكن للدولة من سلطان على العقيدة وإن كانت تحميها وتدفع عنها، وكان ما وقع بالإسلام هو الجهل ثم التحلل من

مسئولية الضمير، فضلا عما جره الخلاف السياسى من تعدد الفرق والمذاهب وتسخير الدين للسياسة.

أما الجهل فقد بدأ يخيم على العالم الإسلامى، وينشر ظلاله السوداء إثر حادثين تركا آثارهما المقيته لعدّة قرون قادمة.

أولهما : جولة التتار المخربة فى أرجاء العالم الإسلامى وسقوط بغداد تحت سنابك خيلهم سنة ٦٥٦هـ الموافقة لسنة ١٢٥٨م، بعد سنوات من التحلل والانقسام والضعف الذى آلت إليه الدولة العباسية.

وثانيهما : سيطرة العثمانيين على العالم الإسلامى وما انتهت إليه من سيطرة الدولة على الدين.

ولم يكن لحادث التتار شبيه فى التاريخ إلا ما كان من قبل الظواهر الطبيعية كالزلازل والبراكين أو العواصف الجائحة المدمرة ، بل إن هذه الظواهر الطبيعية تقصر عنه ولا تدانيه تدميراً وتخريباً، ولولا خفقة بقية بالقاهرة لخيم ظلام قاتم على أرجاء الحضارة الإنسانية فى الشرق وفى الغرب، فقد صانت القاهرة بقايا الحضارة الإسلامية الذاوية، ووقفت أمام تقدم التتار وأنزلت بهم الهزيمة فى عين جالوت، وحالت بينهم وبين الانسياح غربًا إلى مواطن الحضارة المسيحية التى توشك أن تخرج من ظلام العصور الوسطى. ولم يجمع المؤرخون فى الإسلام وفى المسيحية على السواء قدر ما أجمعوا على ما كان لمصر من فضل فى إنقاذ الحضارة الإنسانية من العاصفة المدمرة القادمة من الشرق.

وكان من اليسير أن ينجو العالم الإسلامى من آثار الكارثة التى خلفها التتار وراءهم لولا أن عوامل الضعف والفتور قد أخذت تحل بالمسلمين، فأقفل باب الاجتهاد، وارتد العقل إلى جمود قاتل نضبت فيه القرائح، حتى جاء الغزو العثمانى فزاد الجهل عمقا، وأصبح الدين رسوماً وطقوساً تؤدى غلب عليها الطابع اللاهوتى الذى غلب على المسيحية من قبل، يعبر عنها سيد أمير على تعبيراً جميلًا بقوله : « لقد أفصح أحد الوعاظ المسيحيين فى بيان واضح عن الفرق بين الدين واللاهوت وما أصاب الكنيسة المسيحية من جراء الخلط بينهما.. وما جرى فى المسيحية جرى فى الإسلام فقد حلت سخرية الإقرار الشفوى فى الإسلام محل العمل وحل التمسك بالرسوم محل الجد الصادق بإسداء الخير للإنسان حبا فى الخير وابتغاء مرضاة الله » فلم يكن العثمانيون أهل علم أو حضارة وحين دخلوا عالم الإسلام كانت الحضارة الإسلامية قد أوغلت فى الانحدار فأخذوا بالرسوم والشكل دون الجوهر فحكموا الدولة بسلطان الدين ولم يدركوا سماحته ونبله، ومن سخرية الأقدار أن تلعب القسطنطينية،

وقد أصبحت الآستانة أو استانبول فى الإسلام، نفس الدور الذى لعبته فى المسيحية فحين خضعت الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية لإمرة الإمبراطور وبيروقراطية الدولة خضع الإسلام فى الآستانة لصولة الخليفة وطابع مشابه من البيروقراطية العثمانية التى سادت عالم العثمانيين وكان الغزو العثمانى وإن شابه غزو البرابرة والجرمان للإمبراطورية الغربية إلاّ أنهما انتهيا إلى نتيجتين مختلفتين لا من حيث الشكل ولكن من حيث الأثر، فإذا كانت غزوات الجرمان قد أدّت إلى قيام وحدة كنسية حلت محل الوحدة الإمبراطورية تسودها الكنيسة والسلطة البابوية، فإن غزو العثمانيين قد أدّى إلى وحدة العالم العربى وخضوعه للسيادة العثمانية، ولكنه على عكس ما حدث فى الإمبراطورية الغربية أخضع الدين لسلطان الخليفة، وفى الحالين فى روما وفى الآستانة كان الدين مراسم وطقوساً لاهوتية تؤدى دون تفكير.

وكان الدين فى الحالين سلاحاً للسلطة تسخره لمنفعتها وتستغله لحماية طغيانها فليس هناك ما هو أقوى من العقيدة تقود بها الدولة الجماهير لما تنشده من بسط نفوذها وبناء سلطانها، ولايعنى هذا أن الدين قد فشل فى تحقيق الغاية التى تنشأ من أجلها الدولة أو أنه فقد التوافق والاتساق مع طبيعة الدولة، فالدين عقيدة تصوغ حياة الناس وسلوكهم وفى أحيان كثيرة معاملاتهم الاجتماعية، والدولة نظام قانونى يقوم على تحقيق الخير العام فى إطار من التوافق بين القانون الذى تسنّه ومطالب الجماعة السياسية لا كمصدر للسيادة فحسب ولكن لأن الإرادة العامة للجماعة السياسية إنما تمثل الرغبات التى تجيش فى صدر أعضاء الجماعة وفقاً لمنهجهم فى الحياة.

ومنذ ذلك الحين بدأت الدولة تبتعد عن الدين وتتحرر من أساره فى الغرب المسيحى، بينما ارتدت مسوح الدين فى الشرق الإسلامى فلم يكن للدين الإسلامى نظرية فى الدولة وإن جاء بمبادئ عامة للحكم ، ولم يجمع بين الدين والدولة بل فصل بينهما تماماً ولكن الدولة هى التى تمسحت بالدين واستعانت به فى فرض سلطانها على النفوس فزادت سلطة رجال الدين أو المشتغلين به بمعنى أدق، إذ لم يكن فى الإسلام مثل هذه الطبقة أو الطائفة. وظلت الدولة فى ذاتها بعيدة عن أن تكون دولة ثيوقراطية وإن اتخذت من المشتغلين بالدين أعواناً لها وكان ما تردّى فيه المسلمون من جهل حكاماً ومحكومين هو الذى أدّى إلى ذلك فقد «أخطأ المسلم - كما يقول الشيخ محمد عبده - فى فهم معنى الطاعة لأولى الأمر والانقياد لأوامرهم فألقى مقاليده إلى الحاكم ووكل إليه التصرف فى شئونه .. أما الحكام، وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه، فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم فى أداء

وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم إلّا تسخير الأبدان لأهوائهم، وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الأموال لإنفاقها فى إرضاء شهواتهم لا يرعون فى ذلك عدلاً ولا يستشيرون كتاباً ولا يتبعون سنةً حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم فى الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التى ما فشت فى أمة إلّا حلّ بها العذاب».

وكانت العملية والاتجاه العقلى سبباً فى تحرر الدولة من أسار الدين وطغيانه فى الغرب بينما فرض الجهل والجمود العقلى وإنكار العقل والخضوع للغيبيات سلطاناً رهيباً على الدين والدولة معاً فى عالم الإسلام أشبه بسيطرة اللاهوت وطغيانه عليها فى الغرب قبل الثورة على الكنيسة. ويرجع هذا التناقض إلى اختلاف ما بين السلطة والدين فى الغرب المسيحى عنها فى الشرق الإسلامى فلم يعرف الشرق الإسلامى ما عرفه الغرب المسيحى من ازدواج السلطة وثنائيتها، ولم يكن ازدواج السلطة فى عالم المسيحية الغربى إلّا عارضاً عليها ليس هناك ما ينص عليه من تعاليم المسيحية الأولى فالمأثور عن المسيح أنه قال: «اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، وإنما كان نتيجة ظروف تاريخية حين حملت الكنيسة الغربية مسئولية عالم فسيح انهارت فيه سلطة الدولة أمام غارات الجرمان المتبربرين ، فالباباوات وليس الأباطرة هم الذين حالوا بين الهون والمدنية الرومانية فى إيطاليا وهم الذين حموا روما من عادية اللمبارديين وسرعان ما آلت إلى الكنيسة السلطة الزمنية بجانب سلطتها الدينية ، فصاغت الحياة على هواها طوال العصر الوسيط وكان المسيحيون الأوائل قد صهرتهم مثالية المسيحية فى بوتقة الاستشهاد طوال قرنين سابقين على اعتراف قسطنطين بالديانة المسيحية فاستعذبوا الزهد والتبتل وأيقنوا أن الحياة الدنيا ليست إلّا متاع الغرور وآمنوا برجعة المسيح رجعى قريبة «ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجورا». فأهملوا الدنيا ولاذوا بالآخرة ولم تجد الكنيسة عناء فى فرض لا هوتيتها على عقول الناس وأفكارهم بينما أخذ رجالها إلى جانب عملهم الدينى يدبرون شئون الدولة فهم وحدهم الذين يعرفون القراءة والكتابة واللغة اللاتينية وهم وحدهم من يعرفون حساب الأيام والشهور لضبط الأعياد الدينية ومواقيتها فجذبت إليها بعد زوال الوظائف الإمبراطورية من البلاد وأصحاب الثروة والنفوذ من وجدوا فى المناصب الكنسية فرصة لإشباع رغبتهم فى الإدارة والتمتع بالمكانة التى آلت إلى رجال الدين وأصبح عسيراً على الكنيسة أن تحتفظ بنقائها الأول فغدت مباءةً للمفاسد مما يقصه «جريجورى التورى» فى كتابه «تاريخ الفرنجة».

لذلك كانت الثورة على الكنيسة ثورة على اللاهوت الكنسى وثورةً على مفاسد رجال

الدين دون الدين ذاته ولم يتهاو سلطان الدين إلاّ تحت سلطان العلم، فحين اتجه العقل الأوربى إلى العلمية أنكر اللاهوت وأحل محله القانون الطبيعى وحين اتجهت الملكيات الناشئة إلى الاستئثار بالسلطة أنكرت على البابا سلطانه الزمنى وردت الحق الإلهى فى الحكم إليها دونه وحين ثار التجار بالاقطاع وأمرائه ثاروا بالكنيسة التى تفرض حمايتها عليهم وعلى الإمبراطور الذى يستمد سلطته منها وانتهت الثورة أو السخط على الكنيسة بالعقليين – فى أغلب الأحيان – إلى الالحاد وإنكار الدين كما انتهت بالفكر إلى العلمانية والتحرر من الدين.

وقد نشأت الكنيسة المسيحية فى رحاب الدولة وورثت وظائفها بعد انهيارها وتأثرت بها قبل أن ترث مسئولياتها وتأثرت بهذه المسئوليات بعد أن ورثتها. أما الإسلام فقد نشأ – كما قلنا – بعيداً عن الدولة فى مجتمع كان خلوا من سلطانها فلم يتأثر بها فتكونت الجماعة الإسلامية فى غيبة الدولة. فلما تكونت الدولة كان الفصل تاماً بين الاثنين وظلّ الدين بعيداً عن التأثر بالسلطة ولم تكن السلطة فيما يتصل بأحكام الشرع إلاّ أداة تنفيذية، تنفّذ أحكام القاضى ولا تتدخل فى تشريع القضاء، وظلّت مدارس الفقة والفلسفة بمنأى عن سلطة الدولة تتمتع بحرية كاملة لا سلطان لأحد عليها وإن بقيت الدولة قائمة على التوفيق بينها وبين الدين، أو بمعنى آخر ممثلة لوجدان الجماعة أو ضميرها الاجتماعى.

ولم يكن فى الإسلام ما ينكر التأمل والعقل والتفكير العلمى فقد كانت هذه جميعاً أساساً للدعوة الإسلامية فى بعثها، وهى التى جذبت المسلمين الأوائل إلى اعتناق الإسلام ومازالت تجذب الناس إلى الإسلام فى كل العصور مما يبدو الآن فى إقبال الأفريقيين على الإسلام دون المسيحية ولا سيما عندما تلتقى الدعوتان على أديم واحد.

فلما ارتد المسلمون عن التأمل والتفكير العلمى وأنكروا العقل وغلوا فى الجمود ارتد الإسلام إلى ما يشبه لاهوتية المسيحية فى العصور الوسطى وتردّت الدولة بمثل ما تردّى الناس فى الجهل ففسدت الدولة كما فسد الناس، وكان فساد الدولة من فساد الناس وجهلهم بسمو العقيدة التى يدينون بها، وكان انحطاط المجتمع الإسلامى وليد هذا الجهل الذى ران على عقول المسلمين فى وقت أخذت أوربا تنفض فيه غبار الجهل وتتحرر من الخرافة لتعلى من شأن العلم.

فالدين ولا سيما الدين الإسلامى لا يناقض العقل ولا يحول دون سلطان العلم، فقد أصبح الدين فضلاً عن كونه علاقة تعبدية ظاهرة اجتماعية ترسب العقيدة فيه وتتوارى فى العقل الباطن للفرد وفى الضمير الاجتماعى للأمة لتكون السلوك العام والوجدان المشترك

للجماعة الإنسانية فإذا ثارت الجماعة بالدين أو خرجت منه فلأن العقيدة لم تعد تتلاءم مع الضمير الاجتماعى وفى أغلب الأحيان لا تبلغ الثورة بالدين الخروج منه والكفر به، بل يقف مداها عند تطوير التعاليم الدينية وهو ما حدث فى حركة إصلاح المسيحية فلم تكن البروتستنتية غير حركة تطوير لتعاليم الكاثوليكية الجامدة وثمة ظاهرة جديدة يقول روبرت بالمر أستاذ التاريخ الحديث بجامعة برنستون الأمريكية إنها توشك «أن تفجأ أية حضارة من الحضارات على غرّة منها، وهى ظاهرة الانطلاق من قاعدة الحضارة الدينية» ويرتب على ذلك ما يراه من نظرة الصينيين إلى تعاليم كونفوشيوس التى تقادم عليها العهد على أساس جديد يتفق واتجاه العصر، وما يراه من محاولة الهنود فى تكوين مجتمع جديد متحرر من العادات الهندية القديمة خال من الانقسام التاريخى بين الهندوس والمسلمين. ويقول: «إن الشعوب لا ترفض غالباً أديان أسلافها، ولكنها تحاول أن تقوّيها وتطورها وتجعلها عصريةً لتبعث منها مجالاً لمصالح جديدة غير دينية» فلا يكون الدين أصل كل شىء وإنما ليكون شيئاً من بين الأشياء العديدة فى حياة الإنسان وهذا ما انتهت إليه الديانة المسيحية ففى سنة ١٣٠٠ - كما يقول - «كانت أوربا مجتمعاً دينياً خالصاً وكانت طبقة الإكليروس وحدها صاحبة الجاه والنعيم بينما الطبقات الأخرى غارقة فى الدين لا تنعم بغيره، وبعد ثلاثة قرون أصبح الدين اهتماماً معيناً بين عدة اهتمامات كثيرة ولكن العقيدة المسيحية بقيت صامدة رغم انقسام الكنيسة على نفسها فتطهرت وتقوّت على يد كلّ من الفريقين ممن أصبحوا بروتستانتيين وممن ظلوا كاثوليكيين وإن شغلت الاهتمامات الأخرى الناس بأشياء مماثلة مما يتعلق بمصالحهم، فكانت الحكومة والقانون والفلسفة والعلوم والفنون والمصالح الاقتصادية والمادية فى سيرها لا تحفل بالقيم المسيحية وتقبّل الناس ما تعنيه السلطة والنظام والجمال والفن والمعرفة والسيطرة على الطبيعية بدافع من الرغبة الكامنة فى نفوسهم وهذه المرحلة هى مرحلة الانتقال إلى الدنيويات التى تشيع الوحدة على التاريخ المعقد».

إلاّ أن ظاهرة الانطلاق من قاعدة الحضارة الدينية كما يعنيها بالمر ويعنيها غيره من مفكرى الغرب - فى صور أخرى - وإن استقامت مع الفكر الغربى وعلاقته التاريخية بالمسيحية، وإن بدا أنها تستقيم أيضًا بالنسبة للكونفوشية والهندوكية فى علاقتها بالحضارة الحديثة فإنها لا تستقيم بالنسبة للفكر الإسلامى وعلاقته بالحضارة، فالإسلام لم يربط بين الدين والدولة ولم يدع لأى منهما تأثيراً على الآخر، وهو إن صاغ وجدان المسلمين وأمدّهم بفيض زاخر من القوى الروحية العظيمة فإنه لم يحجر على العقل ولم يكن عائقاً دون التقدم العلمى فاستطاع أن يوائم بين العقيدة والحضارة وبين الدين والدولة وبين العقل والوجدان.

فالدين قوّة وجدانية تمدّ الإنسان بالأمل والرجاء ما استقامت مع العقل وأضفت على الحياة من الحق والخير والجمال ما يضفى على الحياة كل بهجة ورواء فليس الدين غلاً يقيّد به الله إرادة الإنسان إلاّ فيما يسيء به الإنسان إلى نفسه وإلى غيره وليس فيه ما يعوق الإنسان عن التمتع بطيبات ما أحلّ الله فإذا انقلب غلاً فى عنق الإنسان وقيداً على العقل وعائقاً دون الاستمتاع بالحياة أدى إلى الحيرة بين ما هو دينى وما هو من موحيات العقل وإلى التمزق الفكرى بين ما كان وما يجب أن يكون أو بين ما يقوله الدين وما يقوله العلم ولا خلاص للإنسان من الحيرة والتمزق الفكرى ما لم يوفّق بين الدين والحياة وبين الدين والعلم لتستقيم الحضارة مع هدى الدين أو يرفض الدين ويؤثر عليه العلم قواماً لحياته وحضارته.

فلما بدأ العلم الطبيعى بدافع الحاجة إلى إشباع مطالب التقدم - كما هو دائماً - لم ينشأ فى فراغ وإنما أشبع نهمه إلى المعرفة العلمية مما اغترف من علوم العرب ومن علوم مدرسة الإسكندرية القديمة وغزت المعرفة العلمية الجديدة بالعلماء إلى آفاق التجريب والتشبث بالعلوم الطبيعية والرياضية وحملت التجار وأرباب الأعمال إلى تسخير منجزات العلم لسدّ مطالبهم النامية إلاّ أن العلم الطبيعى سار فى طريق بعيدا عن الدين، إذ لم يجد منه ولا من رجاله عوناً له على التفتح والانطلاق وحمّلت الكنيسة الدين أكثر مما حمل الدين نفسه من جفوة للعلم، فإن سلطانها الغاشم على الدين وتأويلها له واحتكارها تفسيره وما كان لعقيدة الخلاص عن طريق القسيس من تسلّط على نفوس الناس، قد ربط ما بين الدين ورجال الدين فى أذهان العامة، فلما اكتشفوا ما عليه رجل الدين من فساد أنهار ما فى نفوسهم من توقير الدين، والعلم الكنسى، وإن بقيت إشعاعة ضئيلة من روحية المسيحية تربطهم به، وأما العلماء والمفكرون فلم يجدوا فى تعاليم المسيحية بعد أن خضعت لتفسيرات الاكليروس ما يتفق وتفكيرهم العلمى فهجروها وكانت ظاهرة الإلحاد والمروق أكثر شيوعاً بينهم منها بين العامة، ولعل مما يباعد بين المسيحية والعلم أنها قامت على المعجزة فلم يخاطب عيسى الناس عن طريق العقل كما كان محمد فى دعوته وإنما اتجه إليهم بالمعجزة دون المنطق والبرهان العقلى ولم يكن العقل الإنسانى قد بلغ درجة من النضج ليستطيع أن يدرك بها حقيقة الوجود العليا فأثار عواطف الناس دون عقولهم ورسم لهم طريق المحبة والمغفرة والرحمة دون تشريع يقيم قواعدها فاقترن الإيمان بالغيبيات واقترنت الفضائل بالتجريد ثم غذتها الفلسفات المعاصرة بما يعوزها من يقين وما ينقصها من مراسم فضلاً عن التشريعات الكنسية التى مزجت بين الدين والدولة وقامت بالوساطة بين العبد والخالق وكان من التناقض بين الفضائل التجريدية وبين واقع الحياة ما أوقع الغربيين بين الإيمان المجرد

والإلحاد العقلى وانتهى إلى هذا الواقع الذى يعانيه الغرب المسيحى فى موقفه من الدين والعلم ومن الدين والدولة حين فصلت بينهما فصلاً تاماً، فلا سبيل للمواءمة بين الدين والعلم ولا سبيل للتوفيق بين الدين والدولة فكانت الإباحة فى العقيدة دون الإباحة فى الخلق.

ثم إن المسيحية استقبلت حضارةً وثنية كانت فى طريقها إلى الانهيار وقامت فى دولة بلغت ذروتها من المجد الإمبراطورى ثم عرتها عوامل الانحلال التى تعترى الدول فى شيخوختها فلم تجد غذاءها من الحيوية التى تدفع المثل العليا إلى التفتح والإنطلاق، ولم تجد من مجد الدولة وقوتها ما يمدها بالقدرة على التجديد ثم انتهت إليها أمور الدولة بعد أن انتهت الإمبراطورية فى الغرب فحلّ البابوات محل الأباطرة بعد أن آلت زعامة المسيحية إلى أسقف روما وانتهت إليه سلطة الأساقفة المحليين ، وغدت الزعامة الجديدة سمة على وحدة العالم المسيحى ووحدة الكنيسة ولم تغير الكنيسة من التنظيم الإمبراطورى وجعلته مثالاً لتنظيمها ومزجت بين الدين والدولة كما كانت الإمبراطورية وتردّت فيما تردّت فيه من أوتوقراطية وفساد ولم تكن الثورة على السلطان الكنسى ثورةً على الكنيسة فحسب وإنما كانت ثورة على المسيحية وعلى الأخلاق الدينية وهو ما يعبرّ عنه برتراند رسل بقوله: «لا مناص لنا من اطراح الكثير مما تعودنا أن نردّه إلى الدين، إذا عنّ لنا أن نبتدع اتجاهاً دينياً جديداً للحياة والعالم. نأخذ من جديد بعقول الأحرار رجالاً ونساءً ونحيى مشاعرهم وأعظم ما ننشده من تغيير هو إقامة بناء أخلاقى فعال يسمو به الأمل ولا يتدنى به الخنوع أو يرتكس به الخوف، نحضّ على ما يجب أن نقوم به من أعمال ولا نقف عند النهى عما لا يصح أن نقوم به فلم يخلق الإنسان لكى يكون دوره فى الحياة أن يتسلل منها ليتجنب الغضب الإلهى فالدنيا هى دنيانا وعلينا وحدنا أن نحيلها فردوساً أو نجعلها جحيماً، بما يلزم ذلك من قوّة هى قوتنا فالمجد والملكوت هما مجدنا وملكوتنا إذ كنا نملك الشجاعة وبعد النظر لاصطناعهما فليست الحياة الدنيا التى نبغيها وقاراً عارضاً أو حرمات خرافية ولن تكون حياة حزن أو زهادةً ولن تحفل بمبادىء الأخلاق إلاّ بقدر، وإنما حياة تستلهم زاد الإنسانية فتسعد ببهجة الإنشاء مستروحة أنفاسها فى عالم حرّ فسيح يقوم على البناء والأمل وعلى أساس ما ينبغى من محبة الناس لا لمظهرهم الخلاب ولكن لما يتوسمه الفكر فيما يمكن أن يند عنهم من خير كامن فيهم».

فظاهرة الانطلاق من قاعدة الحضارة الدينية لا تعنى أكثر من خلق بديل للدين وهو ما عناه رسل بقوله ذاك فالدين لا يمكن أن يكون اهتماماً خاصاً فحسب وإنما هو ظاهرة

اجتماعية تصوغ الأخلاق والسلوك وتبدع القيم التى تثرى حياة الإنسان بالنماء والخير والأمل والجذاب والتطلع الحر لحياة إنسانية أسعد وأهنأ.

وحين ينكر الإنسان الدين أو يتنكر له مجتمع من المجتمعات فلابد أن يقيم لنفسه عقيدة جديدة هى البديل الطبيعى للدين القديم وعادة ما يكون للعقيدة الجديدة من القوّة ما كان للعقيدة القديمة. إن لم تكن أكثر ضراوة حين تفرضها السلطة أو يفرضها المجتمع، فلا يكون للرأى الحرّ أو للنقد معها سبيل، وهى الظاهرة التى نلمسها عند الشيوعيين أو نراها فى المجتمعات الشيوعية التى نبذت الدين وأقامت ديناً جديداً تكرز به وتبدع له المراسم والطقوس. فأحلّت الطبيعة محل الله واتخذت من البيان الشيوعى إنجيلاً جديداً وزاوجت بين العقيدة والسلطة كما كانتا فى البابوية، ورفعت لينين إلى مقام النبوّة، وأحاطته بكل ما للقديسين والأنبياء من مراسم القداسة، وجعلت قبره مزاراً يحج إليه الشيوعيون ويطوفون بجسده المسجى محنطاً مكشوفاً للزائرين ولا يسمح لأى زائر ولو لم يكن شيوعيا بأن يلج ضريحه مرتدياً القبعة أو القفاز، وقد قرأنا منذ سنوات خبر صحفى بلغارى أبى إلاّ أن يذهب راجلاً من بلده لزيارة قبره فى العيد المئوى لمولده. وهو ما كان يفعله الحجاج من المسلمين أو المسيحيين حين لم تكن هناك وسائل المواصلات الحاضرة وكانوا يؤثرون الترجّل على الركوب. ويجدون فى مشقة الرحيل اكتساباً لمزيد من الثواب ، ويقتبس الشيوعيون أقواله ويستشهدون بها ويفسرها المجتهدون كما نقتبس أقوال الأنبياء والرسل ونستشهد بها ونفسرها وتحتلّ صوره وتماثيله مكان الأيقونات فى كل دار ومنتدى ومقر حكومى، وتزدان الأبنية والحدائق بالمأثور من أقواله المنقوشة على ألواح أو أقمشة حمراء كما تنقش آيات القرآن على جدر المساجد أو مواعظ الرسل فى كنائس القديسين.

وتدّعى الشيوعية نفس دعوى الأديان من حيث صلاحيتها لكل زمان ومكان، ولها كما للأديان تفسيرها للكون والوجود، ولها قانونها الأخلاقى المستمد من مبادئها،وتبشر بعقيدتها بنفس القوة والحماس والإخلاص فى الديانات القديمة، ولا يقبل دعائها نقاشاً فيها، إلاّ أن يكون لهم الرأى الأعلى فيما يقولون، وتصر على صلاح الجسد إصرار المسيحية على صلاح الروح، وتنكر كل عقيدة سواها إنكار الأديان السماوية أى نزعة للوثنية أو الإلحاد أو الشرك. وتجرى المادية العارمة فيها مجرى الروحية فى المسيحية، فتقع فيها وقعت فيه المسيحية من فصل بين الروح والمادة، وتقيم مملكة الأرض كما أقامت المسيحية مملكة السماء.

وهكذا نبذت المجتمعات الشيوعية الدين لتجد نفسها دون وعى منها، وهى تكرز بعقيدة جديدة تغلفها بكل ما أنكرته من الديانات القديمة فالدين وإن كان وحياً إلهياً ظاهرة –

بقدر ماهى اجتماعية – فهى ايضاً ظاهرة نفسية. وهو كظاهرة اجتماعية يمدّ المجتمع بالتوافق والانسجام الطبيعيين ويلهمه النظام الممثل فى القانون والماثل فى الدولة وكظاهرة نفسية يصوغ وجدان الأمة ويلهم ضميرها الاجتماعى. ويخلق الاتساق والتماثل فى الإرادة العامة. فالدين هو القوة الكبرى التى تحرك الحياة الاجتماعية ، والتغير الجوهرى فى المجتمع، يرتبط بالتغير الذى يطرأ على العقائد والمثل الدينية، وتخطئ الماركسية حين ترى أن التطور فى وسائل الإنتاج والمبادلة يكمن وراء التغير الاجتماعى والثورات السياسية، وليست النفس الإنسانية أو المعرفة المتزايدة بمبادئ الحق والعدل، فتفرض ماديتها على الجماعة ما يسلب الحيوية من الفرد، فليس فى نبذ الدين ما يدل على التقدم كما يدّل على التحلّل الاجتماعى الذى تظهر آثاره بعد أن تتراجع موجة الالحاد، وتحاول البلاد التى نبذت الدين أن تلم شعثها وأن تبحث لنفسها عن ملجأ أمين وما من محاولة تبذل لتوحيد القيم الإنسانية وصب الحياة فى قوالب جامدة محدودة لا تقوم على أساس من طبيعة الإنسان إلّا وكانت سبباً فى فساد الدولة وسقوطها. فالمادية تعوق العقل وتصم الذوق والأخلاق والعادات بالوحشية وتلقى سدوف الظلمة على طريق الخلاص ولم يشهد الإسلام مثل هذه الثورة على تعاليمه، ولم تكن اليقظة الإسلامية التى بدأها الإمام محمد بن عبد الوهاب وتطورت على يد الإمام محمد عبده إلّا إحياء للقيم والتعاليم الإسلامية الأولى. لاقضاءً عليها أو إهداراً لها أوخروجاً عليها كما كانت حركة الإصلاح المسيحى للكاثوليكية فليس الإسلام بحاجة إلى إعادة النظر فهو متجدد على الدوام قابل للتطور ، متلائم مع كل زمان ومكان، لاينكر الدولة وإن جردها من السلطان على العقيدة، ولا يضيق بالفن والجمال والغنى، يعنى بالعلم ويحض عليه ويدفع إلى النظر والتأمل والكشف عن أسرار الكون، ويدعو إلى تسخير الطبيعة لصالح الإنسان، وينظم المصالح المادية والاقتصادية والعلاقات الاجتماعية بصورة لم يصل إليها العالم بعد، ولم تدم فى تاريخه غير ثلاثين عاماً قصاراً ولعله إذ يصل إليها ويعيها قد يتمكن من حلّ مشاكله والقضاء على أزمانه، ليعيش الناس فى سلام دائم وأخوة صافية على أساس من توفير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية .

إيمان العصر :

ومن الحق ألّا نغالى أو نبالغ فى تقدير ما نسميه انصرافاً عن الدين أو إهمالاً لشأنه فما كان الناس فى عصر الإيمان أكثر صدقاً فى عقيدتهم منهم اليوم، وإن أصبحوا اليوم أكثر تحرراً من ضغط الدين وأقل خضوعاً له عما كانوا فى الماضى بعد أن فقدت الكنيسة قدرتها على القهر والإرغام ولئن أدّت المعرفة العلمية إلى الانتقاص من قدر الدين وتقويض الإيمان

الدينى فقد أدّت بالتالى إلى قيام محاولات للتوفيق بين الدين والعلم إلّا أنها لم تجد فى اللاهوت المسيحى ما يعزز المصالح الدنيوية أو يبررها وبدا فى وقت من الأوقات أن الطبيعة البشرية التى كانت تعبر عن ذاتها فى التحرر الروحى الخالص قد أخذت تفصح عن نفسها فى قدرة الإنسان على الخلق والإبداع وتتجه إلى نوع من المثل الأخلاقية والاجتماعية ترى فيها إشباعاً لحيويتها ومطالبها الدنيوية وكان التعويض عن هذا الفشل هو اعتبار الدين مسألة شخصية ولئن فقد بهذا جانبه الاجتماعى فى تكييف المجتمع باندماج الجانبين الشخصى والاجتماعى فقد ظفر بالنظرة الواعية المتحررة التى لا تجد للإنسان غناءً عن الدين وإن تركت له عقيدته يصوغها كما يشاء وإيمانه يكيفه وفق ما يريد فكانت المحاولات الدائبة لتحرير المسيحية من طقوسها وأسرارها ومن سيطرة رجال الكهنوت المحترفين فبعد أن كان اللاهوت يشد الناس إلى أقانيم وعبادات وطقوس لا يجدون لها تبريراً فى عقولهم أخذوا يبحثون عن الله فى وحدة الكون وفى العالم ووقائعه ولم يعد القانون الطبيعى إلّا تعبيراً عن ارادة الله العليا فإن ما بالكون من الاتساق والنظام لهو دليل على وجود صانعه الأعظم فإذا كنا نرى الله فى وحدة الكون واتساقه فإننا نرفض الثنائية والازدواج فيما هو طبيعى وما هو من خوارق الطبيعة مما يعد شرطاً أساسيا لنمو العلم واتساقه مع الدين ولئن أعترف الفكر المسيحى واليهودى بالمعجزات والخوارق مما يعد خروجاً على القانون الطبيعى وإن أضفى على العقيدة من الحماس والغيرة ما يؤدّى إلى ذلك الإيمان التقليدى الذى ينكره العلم فقد جاء الإسلام مبشراً بوحدانية خالصة لا ترقى إليها ديانة أخرى ومؤكدا لوحدة الكون واتساقه وفقاً لقانون أزلى لا يتغير ولا يتبدل فحرر الدين من الحماس العاطفى وأخضعه لمقررات العقل ولم يلجأ إلى المعجزات والخوارق فى إثبات رسالته وقضى على الحدّ الفاصل بين ما هو طبيعى وما هو خوارق الطبيعة وأكدّ وحدة الكون فى اتساق قانونه الأزلى فحين ظنّ المسلمون أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم قام محمد إليهم يقول: « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة ».

ويؤدّى الإيمان باتساق الطبيعة ووحدة القانون الطبيعى إلى تقدم العلم ونموه حيث لا توجد علّة بغير معلول أو خارقة لا يقبلها العقل لشذوذها عما تجرى عليه سنّة الكون منذ الأزل وهى سنه يؤكد الإسلام ثباتها واستمرارهاوأنها لا تخضع لتغيير أو تبديل فلن تجد لسنّة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلاً وهى سنّة تجرى على ما نعلم من هذا الكون الفسيح وما لا نعلم بعد حيث نفترض فى القانون العلمى أنه يسرى على كل ما يقع تحت الملاحظة أو يغيب عنها إلّا أن الإيمان باتساق الطبيعة وإن أدّى إلى الإيمان بوحدانية الله فإنه

لا يكفى لصحة القانون العلمى الذى يقوم على التجريب والاستقراء وهو ما كان من فرق بين الإيمان العقلى للقرن السابع عشر والإيمان بالعلم فى القرن التاسع عشر وما بعده فالتفكير العقلى استنباطى يقوم على التأمل والتفكير العلمى استقرائى يقوم على التجريب، لذلك كان الاهتمام بالجزئى اساساً لتحقيق الكلّى وإثبات صحة كل قانون عام وهو الذى أدّى إلى تقدم العلم حين تؤدّى ملاحظة جزئيات عديدة إلى نظرية عامه فإذا هوّم العقل فى أجواء فسيحة من التأمل والاستنباط فإن التجريب يشدّه إلى الأرض وينقله من النظر فى الحقائق العليا إلى تدبر المجد الدنيوى مما يؤدى إلى تحطيم الحواجز بين ما هو دينى وما هو دنيوى وإزالة الفروق بين جوانب الحياة وهو القاعدة التى يقوم عليها جوهر الإسلام.

إلّا أن المجتمع الإسلامى قد أصابه من طغيان الجهل ما أصاب العالم المسيحى من طغيان رجال الدين وفى الوقت الذى أفلت فيه الحضارة الإسلامية فى الشرق وفى الأندلس كانت أوربا تنفض عنها وقر العصور الوسطى وتنفض معه كل ما يربطها به فكانت ثورتها على الدين بعض ما اتسم به تحررها من الماضى وأثقاله الفكرية والعقلية حين لاذوا بالعقل فلما انتهى العقل بهم إلى العجز عن إدراك حقيقة الوجود هجروه إلى الإيمان بالعلم الذى يهديهم إلى الواقع ويكشف لهم عن السر فيما تقع عليه أبصارهم. إلّا أن ما عجز عنه العقل قد عجز عنه العلم بدوره حين أدرك الإنسان أن العلم برغم انتصاراته الباهرة مازال عاجزاً عن إدراك حقيقة الوجود فلم يحمل الناس على اليقين المطلق بقدرته ولم يحملهم على الإيمان المطلق بالدين وإنما حملهم على الشك الذى يضرب بهم فى آفاق شتى من التمزق بين النقيضين وهو ما انتهى إليه موقف الدين فى حضارة العصر وهى حضارة أوربية من حيث جذورها الدينية والفلسفية والعلمية ومن حيث حاضرها القائم الذى يمتد إلى كافة أرجاء الأرض بما لم تمتد إليه حضارة من قبل بكل صوره وآثاره.

ولعل هذا الامتداد بكل صوره وآثاره لا يمثل امتداداً عضويا أو فكريا متسقا بقدر ما يمثل امتداداً عضويا وفكريا متصارعاً يمزق فيه الإنسان الإنسان وتمزق فيه الفكرة الفكرة، وفى حمأة هذا الصراع الذى لا يمثل نموّ الحضارة بقدر ما يمثل انهيارها يسخر العلم للقتل بحجة الارتقاء ويسخر الفكر لتشويه الحياة بحجة الحق والإنصاف.

فهل كان هذا الصراع نتيجةً لانهيار الدين وعصمته فى نفوس الناس أم كان للخواء الروحى الناجم عن انهيار الدين ؟..

يرى البعض أن هذا الصراع - ومنهم برتراند رسل - جزء من طبيعة الإنسان فالكراهية والمحبة مما ركب فى النفس الإنسانية منذ القدم فالناس إما أصدقاء تربط بينهم

رابطة أخلاقية هى التعاون وإما أعداء يفرق بينهم التنافس ولكن هذا التقسيم يعتريه التغيير الدائم فقد يمقت الرجل منافسه فى العمل ثم لا يلبث أن يشعر نحوه بشعور من الأخاء « أمام تهديد من جانب الاشتراكية أو خطر الغزو الخارجى » وقد نكره جارنا إبان السلم وتتحول إلى محبته حين يهدّدنا معه خطر الحرب وقلما يشعر الناس بالألفة نحو جلسائهم فى السيارات العامة. فإذا أحدقت بهم غارة جوية سرت الألفة بينهم فالحياة كما يقول – تفقد معناها إذا لم تجد عدواً تكرهه. فإذا أردنا أن نوحد البشرية فعلينا أن نغير « هذه الوحشية اللاشعورية البدائية » بدعم سلطان القانون ثم توجيه الغريزة توجيهاً بريئاً يقضى على وحشيتها.

وتعنى عقيدة الخلاص فى المسيحية تورط الإنسان فى الخطيئة التى جاء المسيح ليكفر عنها كما تعنى عقيدة « ملكوت السموات » تطهيراً كاملاً للحياة من أرجاسها وأدرانها فى ظل المحبة الإلهية التى يتحد بها الناس جميعاً فى الملكوت فهى تسلم أن الشر والخطيئة مما ركّب فى طبيعة الإنسان، وبقدر ما تحرر الطبيعة البشرية من رجس الشر والخطيئة بقدر ما يتجدّد البناء الروحى وسلام الإنسان فإن ما أعلنه المسيح لم يكن – كما يقول ويلز – « مجرد ثورة أخلاقية أو اجتماعية بل إن الشواهد العديدة لتدل على أنها تتضمن لمسة سياسية بسيطة غاية البساطة فحيثما قامت مملكته فى قلوب الناس فإن العالم الخارجى يتجدد ويتغير بقدر ما لها فى نفوسهم من مكانة ».

ومهما يكن جوهر الخلاص وأصل الخطيئة فى العقيدة المسيحية فإنه لما يؤكد نطواء النفس الإنسانية على الخير والشر معاً والتكفير عن الشر بالزهد والتبتل وسيلة للخلاص من شرّ النفس وإقامة بناء روحى للخير.

ويقوم جوهر الهداية فى العقيدة الإسلامية على نبذ الشر وإعلاء الخير فى قوله تعالى: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات)[1].

(ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات)[2].

فالصراع بين الشر والخير ظاهرة لوجود هذين النقيضين فى النفس البشرية وانعكاسهما على حياة المجتمع وسعى الإنسان الدائب كسعى الدين والمذاهب الأخلاقية لمقاومة نزعات الشر وتغليب الخير على الشر لإقامة مجتمع آمن مطمئن يقمع نزعات الشر هو مجتمع الخير وهو مايبتغيه المجتمع من إقامة الدولة التى تحقق الخير للمجتمع.

وقام الدين برسالته السامية لاجتثاث الشر من نفوس الناس وبناء حياة أفضل

---

(١) الأنبياء : ٧٣ .

(٢) آل عمران : ١١٤ .

للمجتمع الإنسانى يغلب الخير فيها الشّر بالترغيب والترهيب وإقامة حدود فاصلة للعقاب والثواب فى الدنيا وفى الأخرة، وكان للوازع الدينى أثره فى كبت غرائز الشر، وهو الوازع الذى يقوم على خشية الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فمهما تخفّى الإنسان واستتر فإن عين الله ساهرة ترقبه وتحصى حسناته وسيئاته، فإذا زال الوازع الدينى لم يكن للإنسان من وازع غير القانون الوضعى وهو قاصر عن معرفة النوايا وخلجات النفوس.

والدين أخلاقى فى جوهره ولكن الوازع الذى يقف بالمثل الأخلاقية على رقابة الضمير وحده ينكر نوازع الشر والخير وحبّ المنفعة عند الإنسان فيبدو مثالية سامية لا وجود لها فى الحقيقة، بينما يقوم الوازع الدينى على الإيمان بالله والخوف من عقابه والأمل فى ثوابه فإذا سما الإيمان إلى الفناء فى الذات الإلهية كانت محبة الله أعظم وازع للنفس وهو وازع يسمو على قانون الأخلاق ووازع الضمير وبه تتجلى مرضاة الله فى سلوك الإنسان وفى أعماله وهو الإيمان الذى يعبر عنه «ماثيو ارنولد» بقوله: «الإيمان بذلك الشىء الذى هو غير ذواتنا والذى يعمل من أجل الخير» والذى يراه هرمان راندال فى أننا «فى جهادنا مع المسيح لتحقيق العدالة والمحبة نعرف الله حقيقة ويصبح الدين نوعا من الشوق الأخلاقى أو الإرادة الإلهية ولا يعنينا ما تثيره هذه الإرادة فى علاقتها بالطبيعة من معضلات بالقياس إلى الحقيقة الأولية فى أنها تتفاعل وتتوائم مع أهداف الإنسان الاجتماعية». لكن الدين وقد تجرد من عنصر الإيمان «ذلك الشىء الذى هو غير ذواتنا والذى يعمل من أجل الخير» لم يفقد الوازع الإلهى فى عالم الحس والضمير فحسب وإنما فقد القدرة على إعادة بناء الحياة بما يتفق والأساس التكنولوجى والاجتماعى الذى تقوم عليه حضارة العصر حين عجزت المسيحية عن خلق التوافق والانسجام بين المثل الأخلاقية القديمة وبين حضارة العصر بمثلها الاجتماعية والصناعية.

وبقدر ما زلزل العلم من أركان الدين، فإنه لم يقوض - على الأقل - الإيمان الدينى والمثل الدينية فى نفس الإنسان العادى فإن المعرفة العلمية لا تبدو فى نظره متناقضة مع إيمانه الدينى ولا يهم رجل العلم فى كثير أو قليل أن يبحث صلة الدين بالعلم ولا يعنيه أن يقوم الدين شاهداً على صحة القانون العلمى ولعله لم يفكر فى هذه الصلة ما فكر فيها رجل اللاهوت حين رأى فى القانون العلمى ما يقوض عالمه الفكرى فلم يحاول أن يراجع تفسيره لمدلولات الكتاب المقدس وظن أن منصبه الجليل بما يضفى عليه من توقير فى نفوس العامة يوشك أن يتحطم أمام الحقائق العلمية الجديدة فكان موقفه دفاعاً عن الذات أكثر مما هو دفاع عن الإيمان وصحة العقيدة مما لم يعن به الرجل العادى.

ولكن انهيار الدين وتقويض أركانه فى نفوس العامه جاء مباشراً وصريحاً بنشوء مذاهب

اجتماعية جديدة وصمت الدين بالرجعية وأنه «أفيون الشعب» فناصبته العداء ونسبت إليه كلّ تأخر فى الوقت الذى عجز فيه رجال الدين عن تبرير العقيدة فى نظر العلم الحديث فكان هذا العجز بدوره أداة فعالة لتقويض الدين عندما اتخذوه ذريعة لاتهام الدين ودليلاً عن خرافته ولاذوا بالمادية يكرزون بها ويدعون لها العصمة والجلال وكانت مأساة الحضارة الحديثة فى عجزها عن خلق التوافق والانسجام بين الدين والحياة أكثر مما كان من عجزها عن التوفيق بين العلم والإيمان.

ذلك موقف الحضارة الأوربية - وهى حضارة العصر - من الدين والحياة تمزقت فيها المسيحية بين الشك والإلحاد والإنكار فمن مستريب يأخذ الشرك بنفسه فلا يهتدى إلى يقين وملحد لا يرى للدين سنداً من العلم، ومنكر يرى فى الدين خدعةً كبرى لتبرير العبودية قديماً والاستغلال الرأسمالى حديثاً فهو أفيون الشعوب يخدر عقلها ويخدعها عن إدراك حقها.

الإسلام والعلم :

الإسلام لا ينكر العلم. وفى الحديث «اطلبوا العلم ولو فى الصين» ما يعنى المعاناة فى طلب العلم ولا يعنى العلم الدينى فليس فى الصين ما يطلبه المسلمون للتفقه فى الدين وإنما يعنى العلم الطبيعى كما هو معروف ولم يؤخذ على فقهاء الإسلام ضيق بالعلم ولا يعرف عن الدولة الإسلامية أنها اضطهدت العلماء أو وقفت من العلم موقفاً إذّاء. وقرر الإسلام حرية العقيدة وحين قرر الإسلام حرية العقيدة إيماناً وكفراً فقد قرر بالتالى حرية البحث العلمى فى قوله تعالى:

(لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم[٣]).

وفى قوله جل شأنه:

(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر[٤]).

وكان للعلماء من أصحاب الملل الأخرى ما كان لعلماء المسلمين من منزله رفيعة ومكانة عالية فى المجتمع الإسلامى وعند الخلفاء ومما ينسب إلى المأمون قوله «إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدّبى أولادهم من النساطرة ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين».

---

(٣) البقرة : ٢٥٦ .

(٤) الكهف : ٢٩ .

وقد قرأ المسلمون أرسطو قبل أن يقرأه الغرب المسيحى ومن العرب انتقلت جذوة الحماس للفلسفة اليونانية إلى أوربا فى عصر النهضة.

ولا يقف الإسلام ضدّ التقدم الاجتماعى ولم يعرف عنه أنه اتخذ جانب السلطة ضدّ الفقراء والكادحين بل كان عوناً لهم على حقوقهم فأنصفهم قبل أن ينصفوا أنفسهم ومن القضاة من وقف فى الحق لضعيف ضدّ الخليفة نفسه وأنكر الإسلام الطبقية حين نبذ القبلية والعنصرية والتفاخر بالأنساب والأحساب والجاه وسعة الرزق وإن لم ينكر التفاوت فى المآثر وفى التميز العقلى والخلقى وسوّى بين الناس جميعاً فى أخوّة إسلامية جامعة ونبذ القبلية والشعوبية وقال بالدولة العالمية التى تسود فيها شريعة الحق، وقوّض تراكم رأس المال والملكية الخاصة بما قرره من أحكامها وسدّد ضربةً قاضية للرق فلم يكن من اليسير فى عالم تغلغل الاسترقاق فى كيانه تحرير الأرقاء تحريراً كاملاً. ولكن الإسلام وضع السنن لتحرير الرقيق والقضاء على تلك العادة المرذولة فكان تحرير الرقبة أفضل القربى إلى الله وكان كفارة الفرائض التى يقصر المسلمون فى أدائها كما أجاز للعبد شراء حريته بأجر عمله فإذا لم يكن لدية المال الذى كوتب عليه كان من حقه أن يتفق مع سيده على سداده بكسبه من عمل آخر فيسمح له بتركه بعد الاتفاق معه على ذلك، وفرض على بيت المال أن يخصص بعض حصيلته لفك الرقاب وللرقيق فى شريعة الإسلام ما للقريب والجار وابن السبيل من صدق الرعاية وحسن المعاملة ومن المحرمات أن يكلف العبد بعمل يؤوده أو يخاطب بصفته أو يطعم مما لا يطعم منه سيده أو يكون له لباس خاص يعلن عن وضعه وأن يفرق بينه وبين ولده أو أخيه أو زوجه أو أىٍّ من رحمه ولا يلصق الرق فى الإسلام بالرقيق مهانة أو ضعةً ولا يعدو كونه أمراً عارضاً لا سنة طبيعية. وقد تولى زيد بن حارثة - وكان عبداً لخديجة وأعتقه النبى - إمرة الجيوش وزوّجه النبى بابنة عمته زينب بنت جحش وأمّر ابنة أسامة على الجيش الذى أعدّه لحرب الروم وكان بلال أول مؤذّن فى الإسلام صحابياً جليل ممن شهدوا بدرًا عبدًا أسود غضب له رسول الله حين عيّره أبو ذر الغفارى بسواده وأبى أبو ذر إلّا أن يضع خدّه على الأرض ليطأه بلال وليغفر الله زلّته . وأبو ذر أوّل من نادى فى الإسلام بأن المال مال الله وأنكر أية ملكية خاصة للفرد .

وكان الإسلام ثورة أجتماعية كما كان ثورة دينيةً فعندما أهلّ على العالم بنوره كانت حالة الجماعات الإنسانية فى الشرق والغرب « تدعو إلى الرثاء - كما يقول سيد أمير على - بدرجة يقصر دونها الوصف فالكثرة ضعيفة مستعبدة لا تتمتع بأية حقوق اجتماعية أو سياسية، ففى الشرق كان الكهنة وكبار الملاك فى فارس هم وحدهم أصحاب السلطة .

والنفوذ يستمتعون بالثروة ولا يتركون منها سوى فضلة تقيم أود المستعبدين من الرعية، وفى الغرب كان رجال الدين والأعيان من ذوى السلطان ممن يلوذون بالقيصر والعاهرات من حظاياه هم الذين ينعمون بالثروة والنفوذ والشعب يتمرغ فى حمأة التعاسة والبؤس ويعانى الفقر والعوز، وفى بقية المجتمعات الإقطاعية كان السواد الأعظم من الناس إما أقناناً أو أرقاء حتى جاء نبى الإسلام العظيم فنفخ فى بوق الحرية وأعلن المساواة التامة بين البشر وحرر الكادحين من ظلم المستغلين وقضى على الفروق الطبقية والتمايز العنصرى والدينى وجعل الناس سواء أمام القانون وأمام شريعة على درجة عظيمة من المرونة والبساطة والقدرة على التطور تبعاً لتطور الحضارة وتقدمها».

وتقوم الحضارة الإسلامية على التوفيق بين ما هو مادّى وما هو روحى وتؤكد بذلك وحدة الإطار الخارجى والداخلى للحضارة. وهو ما تفتقده الحضارة الأوربية بعد ما فاقت معرفتها بالعالم الخارجى كل معرفة لها بالقوى الثابتة فى نفس الإنسان.. مما أدّى إلى خلل التوازن فى بنائها العام، وهو الخلل الذى أدّى بالحضارات السابقة إلى الانهيار والأفول. والذى ينذر حضارة العصر بنفس المصير المحزن وهو ما يجمع عليه مفكرو الغرب «فليس من المبالغة – كما يقول ويلز – أن الإنسانية قد أصابها فى الوقت الحاضر مسٌّ من الجنون، ولسنا فى حاجة إلى ضبط النفس كحاجتنا إليه اليوم، فإذا كنا نصم الفرد بالجنون ما لم يتوافق سلوكه العام مع ظروف حياته التى يحياها ويعيش فيها إلى الحد الذى يكون فيه سلوكه خطراً على نفسه وعلى الآخرين، وهى الحالة التى يتردّى فيها الجنس البشرى كافة،... فإما تعقل وتماسك أو هلك وذهب هباءً وعليه حقا أن يواجه الهلاك أو يبدأ طوراً جديداً يبذل فيه من القدرة والجهد ما يتسم بالكمال، وما من سبيل يجتازه بين هذين النقيضين فإما إلى السماك الأعلى وإما إلى الحضيض الأدنى ولكنه لن يظل أو يبقى كما هو». وهو قريب مما ذكره برنارد شو فى إحدى محاضراته التى ألقاها وهو يطوف حول العالم عام ١٩٣٣ بقوله: «إن الحقيقة التى نواجهها اليوم هى أننا نقف على حافة الهاوية نفسها التى تردّت فيها الحضارات السابقة وتحطمت، وليس هناك شك فى هذا، فالأعراض هى نفس الأعراض، والمصاعب هى نفس المصاعب، ولكن احتمال وقوع الكارثة أشدّ وأقوى، فهل ترى نجتاز الهوّة أو نقع فيها بلا حول ولا قوة» إلّا أن كارل ما نهايم يقترب من التشخيص لداء العصر أكثر من غيره فيقول: «إن الذين يميلون إلى الاعتقاد بأن وسائلهم لمواجهة المشاكل الاجتماعية وعلاجها جامعة شاملة يدركون أن النظرة العملية النفعية ناقصة وأن الجماعة إذ توجهها النزعة النفعية الخالصة تفقد حيويتها الداخلية المحركة»، ولا يخرج عن هذا المعنى ما يقوله «برتراند رسل» و «هارولد لاسكى»

و «أرنولد توينبى» و «أنيشتين» و «رينولد نيبور» و «راداكرشنان» وغيرهم من أئمة الفكر المعاصر.

وقد نختلف معهم كشرقيين فى النظرة وفى التشخيص، فبينما تتسم نظرتهم بالقناعة وينتهى تشخيصهم إلى اليأس حين يفقدون الأمل فى التغيير المنشود، لا نرى نحن فى الشرق ما يدعو إلى الحزن ولا يستعصى علينا التشخيص ما دمنا نملك القدرة على التغيير وهى القدرة التى تعوز الغرب فإن انهيار القيم المسيحية فى عالم يدين بالمادية وعجزها عن التوافق مع العلم ومع المجتمع الصناعى قد أدّيا إلى الخواء الروحى الذى تعانيه الحضارة الغربية، وفشل العلم كما فشلت المثل الجديدة للعالم الصناعى فى خلق قيم جديدة تحل محل قيم المسيحية المتداعية وغدت المنفعة تعبيراً عن المادية الجديدة فى صورتها العلمية والصناعية، فحيث أدّى العلم إلى الإيمان الكلّى بالواقع فقد أدّت سيادة الآلة إلى مجتمع تحكمه القدرة الصناعية كما تحكمه أحلام القائمين على الصناعة من العامل إلى المموّل، وحين اختلف المموّل والعامل حول عائد الإنتاج نشب الصراع بينهما وهو الصراع الذى تحكمه المذاهب الاقتصادية والاجتماعية الجديدة وهو صراع لا يقبل المهادنة وهو من الضراوة والحدّة بما يهدد الحضارة بالفناء على مذبح الطمع والأنانية حين يقود العالم إلى حافة المواجهة الذرية فيقع فى الهاوية التى ابتلعت الحضارات السابقة. فالشرقى- والشرقى المسلم بالذات - لا يرى خلافاً بين العلم الحقيقى والدين السليم المتطور فهما لا يختلفان فى نظره - كما يقول ميرزا محمد حسين - إلّا فى الغاية والأسلوب والتعبير وليس ثمة خلاف جوهرى بينهما ما لم يتجاوز كل منهما مجاله، «فالعلم الصحيح يعنى بوصف نواحى النشاط المختلفة للطبيعة، وبيان القوى المتباينة التى تعمل فيها كالكهرباء والبروتوبلازما والذهن أما الدين فيفسر الحياة بطريقة كلية ويعرض ما فيها من خبرات إنسانية ويوضحها قياساً على القدرة الإلهية العظمى».

ولعل الأمل الذى يراود الإنسانية فى التوفيق بين الدين وحضارة العصر ما ينعقد عليه الرجاء الآن فى قدرة الإسلام على مواجهة التحدى المادى. وهو ما حمل «لورد لوتشيبان» فى الخطاب الذى ألقاه فى المؤتمر الدينى بجامعة عليكرة سنة ١٩٣٨ على إلقاء السؤال التالى: «هل يستطيع دينا الهند العظيمان: الهندوكية والإسلام، أن يصمدا لضغط النظرة العلمية الحديثة الناقدة بأكثر مما استطاعت الأديان الأرثوذكسية فى الغرب؟» ثم يقول: «هذا سؤال هام على قادة الهند الدينيين أن يواجهوه إذا كان للهند أن تجتنب الكوارث التى ألمت بالغرب. إن النظرة العلمية ستذيب بالتدريج ما بقى فى نفوس الناس من خرافة وجهل

وهذيان ولكن هل تتزعزع لذلك قيمة التعاليم الروحية التى يبشر بها الدينان العظيمان بين المثقفين من الجامعيين والجامعيات الذين سيقودون خلال الجيل أو الجيلين القادمين الحياة السياسية والثقافية والصناعية فى الهند؟» .

« فمن الواجب ألا يقتصر الدين بالإنسان على حل لغز الكون، وإنما عليه أن يفسر له فى دقة علمية كيف يسيطر على القوى الجديدة التى تهدد حياته بالدمار أكثر مما تنفعه . كيف يتفادى البطالة والتحيف والاستغلال والظلم والحرب وغير ذلك من أمراض المجتمع وكيف يعالج الخلافات الشخصية والعائلية التى تهدد سعادة الفرد فالإنسان بعد أن تراكمت عليه مشاكل العلم وازدادت دون حل، يلتمس فى الدين الهداية فى حلكة الشكوك والمشاكل وعلى الدين - إذا أراد أن يستعيد مكانته أو يبقى عليها - أن يقدم حلولاً روحية علمية تؤدّى إلى نتائج حتمية ».

والحلول الروحية العلمية التى تؤدى إلى نتائج حتمية ثابتة ثبات الاستقراء العلمى هى ما نراه من قدرة الدين - أى دين - على التوفيق بين المادى والروحى وبين الفكر والواقع وبين ما هو طبيعى وما هو فوق الطبيعة، وهو التوفيق الذى يقوم فى الإسلام أساساًلوحدة الوجود برهاناً على وحدة الخالق الأعظم، فالإيمان بوحدة القانون الطبيعى يؤدّى إلى الإيمان بوحدة الكون ويؤدى بالتالى إلى الإيمان بوحدة الخالق فالكون الواحد معناه إله واحد، وهى الوحدانية التى بشر بها الإسلام فى بساطة ووضوح بقوله تعالى:

(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد[٥]).

وقوله: (وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم[٦]).

فغدت جوهر العقيدة الإسلامية لا يصلح الإيمان إلاّ بها ولا يقوم إلاّ عليها لا ريب فيها ولا شك ولا جدال، وهى الحقيقة الأزلية الكبرى لا يغفر الله أبداً لمن نالها بباطل فى قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[٧]).

فهى حقيقة مطلقة قاطعة ولكنها لا تنزع الإنسان عن النظر والرؤيا والتماس البرهان واليقين، وإنما تحث عليهما وتنشد النظر العقلى لإثباتها لا عن طريق التأمل فحسب وإنما بالبحث الاستقرائى فى طبيعة الأشياء والنظر فيها وتدبرها للكشف عن سرها ومعرفة القانون الذى يحكمها، والقرآن صريح فى دعوته لذلك فيقول:

(إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر

---

(٥) سورة الإخلاص .

(٦) البقرة : ١٦٣ .

(٧) النساء : ٤٨ .

بما ينفع الناس، وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون[٨].

ويجمع القرآن فى صورة باهرة بين تفسير القانون العلمى والنتائج التى يؤدى إليها، فالكون فى كليته وفى ظواهره العديدة مما يخضع كما أثبت العلم لقانون كلّىٍّ واحد واستقراء الإنسان للقانون الكلّى الذى يحكم ظواهر الكون يمكنه من تسخير الطبيعة لغاياته ومنافعه فالفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، والماء الذى ينزل من السماء فيحيى الأرض بعد موتها نتائج لقانون ثابت يحكم مسبباتها.

ولكن الإنسان مهما بلغ من العلم سيبقى علمه قاصراً عن إدراك سرّ الكون، وهو ما يقوم عليه الدليل العلمى كلما أوغل الإنسان فى المعرفة وفى الكشف عن الظواهر والجزئيات فى تركيب هذا الكون الهائل وهو ما يؤكده القرآن، كما يؤكده العلم الحديث فى قوله تعالى:

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً[٩]).

(يامعشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلّا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران[١٠]).

فإذا اعتقد الإنسان أنه وصل بالعلم إلى غايته فقد حكم على نفسه بالجمود وإذا اعتقد أنه بعلمه الذى حصله - وهو علم مازال قاصراً أشدّ القصور - قد أدرك سرّ الكون فقد حكم على نفسه بالجهل. وإذا اعتقد أن ما لا يقوم عليه الدليل العلمى وإن أدركه بالعقل باطل فقد حصر نفسه فى دائرة مقفلة تحول بينه وبين الفرض الذى يؤدّى إلى اليقين فإذا عزّ اليقين أو امتنع لعجز الاستقراء العلمى فليس فيه ما يعنى انعدام الظاهرة، وإنما يعنى عجز التجربة عن تبين القانون الذى يحكمها، وليس انعدام الظاهرة التى تثبت وجودها بما ينم عنها، وقد نرى من الظاهرة الطاقة التى نسخرها ونتحكم فيها وإن كنا لا ندرك كنهها، فنحن لا ندرك من الكهرباء إلّا ما ينبعث عنها من الطاقة التى نسخرها لمنفعتنا.

وآفة العقل الغربى أنه فى اعتقاده بقدرة العقل الإنسانى ظنّ أنه قد وصل بهذه القدرة إلى إخضاع كلّ شىء وهو وهم باطل، فالعقل الإنسانى من القدرة حقّاً بما لا يقف عند حد، إلّا أنه لم يستوف كل طاقات قدرته النافذة، ولن يستوفيها ما دامت أبعاد الصوت والضوء

---

(٨) البقرة : ١٦٤.

(٩) الإسراء : ٨٥.

(١٠) الرحمن : ٣٣ - ٣٥.

فى كون لا متناهى تقف بينه وبين إدراك اللامرئى واللامسموع من هذا الكون الذى لا تدركه الأبصار أو الأسماع.

وبهذا الاعتقاد نزع الغرب عن نفسه كل ما هو روحى وجعل من الوجود المادى أساساً لتفكيره ومن العلاقات التى تحكمه أساساً لسلوكه فأقام حياته على المنفعة فى واقعها الاجتماعى والاقتصادى فكانت أساساً للأخلاق وأساساً للعلاقات الاقتصادية مما يجعل حضارته نقيض الحضارة الإسلامية التى توائم بين الدين والعلم، وتزاوج بين الروح والمادة بما يدعو الإنسان إلى إدراك صلته بالوجود ومكانه منه، ليكون العقل قوام إيمانه، فإذا بلغ الإيمان منه مبلغ اليقين العقلى، فغذّاه بالمثل السامية فى الأخلاق والسلوك لتكون أساس حياته اتسق فكره مع بنائه الاجتماعى ونظامه الاقتصادى، لتقوم الحضارة على توقير الحياة وإعلاء كرامة الإنسان وهما جوهر الحضارة الإسلامية وجوهر كل حضارة تدعو إلى حسن إدراك صلة الإنسان بالوجود ومكانه منه.

الإسلام والحياة:

هل بعث الدين غُلًّا فى أعناق الناس يسخّرهم لما يجفوه العقل أو تضيق به قدرة الإنسان؟ إذا كانت تلك غايته فهو عذاب الدنيا يتلوه عذاب الآخرة لمن يتنكر له أو يجفوه.

كانت تلك هى مأساة العقل الأوربى صنعتها الكنيسة ولم تصنعها المسيحية، فالمسيحية الحقة كما قلنا – بسيطةغاية البساطة خالية من التعقيدات التى أدخلت عليها فيما بعد ولم تكن غير حركة تجديد لليهودية المنهارة. ففى قول المسيح: «لا تظنوا أنّى جئت لأنقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل». وهى إحدى ديانتين سماويتين عظيمتين تسودان هذا العالم، فلا غرو أن كان لها أعظم الأثر فى حياة الإنسان وفى الحضارة الإنسانية على السواء.

وبينما ينكر اليهود المسيحية، تعترف المسيحية باليهودية حلقة فى سلسلة التطور الدينى وبينما يعترف الإسلام بالديانتين العظيمتين السابقتين عليه، لا ينكر منهما إلّا ما تسرب إليهما من عقائد الوثنيات المجاورة، لا يعترف أصحاب هاتين الديانتين بالإسلام. وإن كان الإسلام كما قلنا، وكما جاء بنصه – دين السماء، منذ بعثت أديان السماء «دين إبراهيم وموسى وعيسى دين عبادة الله وحده لا شريك له، الوحدانية المطلقة المنزهة عن كل شرك.

وهى آخر مرحلة من مراحل التطور. فى إدراك حقيقة الله، تلك المراحل من التطور، التى مرت بها رسالة السماء منذ بعث بها نوح حتى محمد عليهما السلام».

(إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً[١١]).

ولا حاجة بنا فى هذا المقام إلى تفصيل مراحل هذا التطور الدينى وبيان صوره، فإن كلّ ما يعنينا أن الأديان السماوية كل متكامل فى هذا الوجود الإنسانى تطورت بتطوره ونمت إلى الكمال بنماء هذا الوجود الإنسانى نحو الكمال ، ولا يعنى هذا أن تطور الفكر الدينى قد وقف عند رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فمحمد خاتم الأنبياء - حقيقة يسلم بها أتباع الأديان الثلاثة من واقع التاريخ - والإسلام عقيدة أكتملت فيها رسالة السماء، إلّا أن تعاليمه مازالت تقبل التأويل والتفسير لتساير تطور الوجود الإنسانى نحو الكمال، ومعجزة الإسلام أنه دين يساير كلّ زمان ومكان ويتطور بتطور الفكر الإنسانى وتقدمه، وكل ما يقف عنده الإسلام فلا يقبل فيه تفسيراً أو تأويلاً هو الجوهر وليس العرض، فالوحدانية هى جوهر الإسلام، لا تقبل تأويلاً أو تفسيراً، أما المظاهر العامة للعبادات والتشريعات الاجتماعية فهى قابلة للتأويل والتفسير وقد تناولها المجتهدون منذ البداية بتفسيرات شتى ووضعوا لها حدوداً متباينة، ولكنها فى تباينها لا تمس جوهر العقيدة أو تلمسها بتفسير أو تأويل، وقد ظنّ فقهاء الإسلام أن باب الاجتهاد قد أقفل على الأئمة الأربعة حتى ظهر ابن تيمية ففتح باب الاجتهاد من جديد، وجاء بعده مجتهدون آخرون منهم من أخذ بسنّة السلف ومنهم من جدّد وكان الشيخ الإمام محمد عبده آخر المجددين فى هذا المضمار.

ومن البداهة أن يكون الدين متلائماً مع الفطرة ومع الخير العام للإنسان ومع أحكام العقل خالياً من الأسرار والطقوس التى تلقى ظلا من الأوهام العاطفية على بداهات العقل فإذا كان الإسلام يمثل أرقى وأسمى ما وصل إليه التطور الدينى فى حياة البشر . فإنه لا يتناقض ولا يمكن أن يتناقض فى جوهره مع اليهودية والنصرانية، فإذا كان ثمة تناقض أو تباين فى جوهر الحقيقة الخالدة، فإن مردّ هذا التناقض فى أحدهما مما لا يردّ إلى تعاليم السماء وإنما يرد إلى فكر الإنسان القاصر عن إدراك حقيقة الوجود.

وإذا كانت المسيحية قد أغفلت الجانب المادى من الحياة وقصرت رسالتها على

---

(١١) النساء : ١٦٣.

الروحانية المجردة فإن الإسلام قد جاء بشريعة مفصلة للحياة. فهو ليس عقيدة دينية فحسب وإنما هو حياة يحياها الناس فيما بينهم وبين أنفسهم وفيما بينهم وبين غيرهم، فارتبط بالحياة وأصبح قانوناً للحياة لا تنفصل عنه الحياة أبداً ما لم تضل الحياة مسارب أخرى للفكر. وكان على رجال الدين المسيحى أن يشرعوا للحياة ليكتمل ما بين الدين والحياة فى عالم طحنته مادية روما وأحس بالحاجة إلى غذاء روحى جديد، وكان الاستشهاد قد أورثهم من الزهد فى الحياة بقدر ما أورث الأقباط فى مصر النسك والتبتل ، كما أورثهم الحركة الديرية التى عمّت أرجاء العالم المسيحى فيما بعد، واقترن الزهد بجفاف الفكر اليونانى ونضوب الأسلوب العقلى للحضارة الهيلينية فقام عالم أساس عقيدته - كما يقول فشر - « قول القديس أوجسطين إن الله خلق الدنيا متاعاً عابراً مصيره الزوال.. وأن الآخرة للمتقين خالدين فيها أبداً »، وثوى الفكر المسيحى إلى لاهوتية جامدة نأى بها عن الحياة وأغفل المجتمع وأنكر العلم والعقل.

فلما بزغ فجر العقل الأوربى كانت الثورة على الكنيسة وعلى الدين بقدر ما كان انطلاق الناس من قيم العالم القديم الذى قيدتهم به الكنيسة، فلاذ البعض بالإلحاد وأخذ البعض بالتنقيب فى كتابات العهد القديم لتطهير المسيحية وتحريرها من ربقة الإكليروس ولاهوتية القديس أوجسطين، وحين أراد توما الإكوينى أن يوفق بين العقل واللاهوت مستلهماً القانون الطبيعى لم يزد على تأكيد عالم القديس أوجسطين، ولكن المصالح النامية لطبقة التجار المحدثة وظهور النزعة القومية الجديدة، هما وحدهما اللذان قضيا على عالم القديس أوجسطين وسلطة الكنيسة، فانهارت المثل المسيحية القديمة، وحل محلها عالم مثله الأعلى خير الناس ومصلحة الفرد، ولما نزع الفكر الغربى نحو التوفيق بين الدين والدنيا، عدّه حاجةً من حاجات الإنسان العديدة، لا تثير من اهتمامه إلّا ما تثيره مصالح دنياه كما يقول « بالمر ».

ولم يكن الإسلام فى حاجة إلى مثل هذا التوفيق فقد جمع ما بين الدين والدنيا وشرع من الدين ما شمل الدنيا فأرسى قواعد الأخلاق على أساس من توقير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية وأقام قوانين الوجود على أساس من التأمل والعقل. ونظم العلاقات الاجتماعية والواجبات الإنسانية على أساس الواجب والمسئولية، وحدّد المثوبة والجزاء فتجزى الحسنة بعشرة أمثالها عند الله، وتجزى السيئة بمثلها. وربط ما بين الدين والحياة برباط من الوحدة والاتساق لا يشذّ فيهما الواحد عن الآخر ولا يتنكّب الإنسان فى أحدهما سبيل الآخر. « فكان دين الفطرة عن حق، فلو ترك الطفل وشأنه حتى يكبر لما اختار غير الإسلام »

- كما يقول الشيخ جاويش - ذلك أنه لا يناقض الطبيعة البشرية فى حاجتها إلى الإيمان القائم على العقل، كما يعلى من شأن الخير ويسمو بالنوازع البشرية إلى العمل الصالح فى قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فإذا تواصى الناس على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله وحده لا شريك له فهم خير الأمم أو من خيارها، وما كان المسلمون خير أمةٍ أخرجت للناس إلّا لأنهم يقيمون حياتهم على هاتين القاعدتين اللتين جمعتا حكمة الأجيال وفلسفة الخير فى الوجود.

والدين مما فطرت عليه الطبيعة البشرية تلوذ به النفس من رهبة هذا الوجود ليضفى عليها الراحة والطمأنينة استوحاه البشر خيالهم فى حياتهم القديمة وسكنوا إلى ما استوحاه خيالهم القاصر، فلما بعث دين السماء كان ملاذاً للنفس وهدياً للناس.

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون[١٢]).

والناس فى حاجتهم للدين ينشدون استقامة حياتهم وصلاح حالهم، والإنسان بما فضله الله بالعقل والفكر يتطلع إلى اليقين، وكلما ارتبط يقينه بعقله وفكره نعم بالإيمان الخالص وكان إيمانه من هدى يقينه، ويقين المسلم دليل إيمانه، فالحقيقة الأزلية الخالدة فى الإسلام هى: (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) وهى حقيقة يدركها العقل دون عناء، وما تباين العقائد وتعددها فى تصوير الآلهة إلّا من قبيل العجز عن إدراك وحدة الوجود، وقديماً أدرك الفلاسفة والحكماء وحدة الخالق ووحدة الوجود ولكنهم أخطأوا القياس وضلّوا التصور، فبينما «كان عامة الناس» كما يقول هنرى توماس مؤلف أعلام الفلاسفة - يتحدثون عن الآلهة، كما نتحدث نحن عن الملائكة تماماً، كان الأكثر حكمةً يذكرون الله، وقد آمن إخناتون، ويعنى اسمه «المكرس لله» بقوة سماوية واحدة تطل حانيةً من عل على وجه الأرض، وتحل فى كل شىء من خلقه. فى الإنسان وفى النبات وفى الحيوان وفى الجماد، وتصورها فى الشمس أو الشمس رمزاً لها فتوجه إليها بالدعاء وفى «زند - افستا» أو «تفسير الحكمة» فى الزرادشتية أن «أهورا مازادا» هو رب الخليقة والحياة والمادة، وفيه تتجسم العدالة والألفة والأخوة الإنسانية فما الحياة فى نظر زرادشت إلّا رحلة جزئية نقوم فيها بخدمة بعضنا البعض، فإن «أهورا مازادا يضمّ كلّ البشر فى حبه الشامل» وفى فلسفة بوذا ضلّت فكرة الألوهية فى تهويمات اللامتناهى فى النرفانا وفى عقيدة

---

(١٢) الروم: ٣٠.

العودة والتناسخ، ورحل كونفوشيوس عن الحياة وقد ارتفع بعد موته إلى مصاف الآلهة عند الصينيين لا أدريا يرى أن العقل غير قادر على إدراك كنه الحياة «وإننا لا ندرى ما وراء الظواهر المادية» واتجهت الفلسفة اليونانية إلى طبيعة الوجود دون طبيعة الله، فتحدثت عن خليقة حية بدون خالق حتى «حتى جذبها أكسانوفان إلى فلسفة الشرق وإلى فكرة العالم الواحد فى رعاية الإله الواحد».

فقال إن مردّ الكون لله، وبدأ الفكر اليونانى يسلم بالفكرة الشرقية عن التوحيد «الله واحد لا بداية ولا نهاية» «فهو العقل الذى يهيمن على العالم والجسم الذى يكون العالم» كما يقول صاحب أعلام الفلاسفة - وسخر اكسانوفان من تصوير الله على صورة البشر وتبعه فيثاغورس فآمن بالوحدة غير المرئية لله وقال إن العالم المرئى صورة شوهاء لنور الله، وإن مزج فكرته بالفلسفة الهندية عن تناسخ الأرواح. ثم كانت مدرسة سقراط فى الفلسفة فقيل إنه «أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض» واتجه باهتمامه إلى عقل الإنسان دون البحث فى أسرار الله.

وهكذا سبق البحث عن حقيقة الله أديان السماء، فلما بعث الإسلام جاء فيها بالقول الفصل، وما كان الإسلام إلّا امتداداً لليهودية والمسيحية، وكان من التباين بينهما حول عقيدة التوحيد ما فسره «لورد ماكولى» واستشهد به الشيخ جاويش بقوله «إن علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلى، فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الأشياء ما لا يمكن للعقل أن يحيط به، بخلاف السواد الأعظم من العامة فإن معظم أفكارهم وقضاياهم إما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبدون شيئاً من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم، ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية فى كل أمة وفى كل جيل وفى كل زمن فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ما صوره خيال معتقديها».

«ولطالما أذن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديماً فى دينهم من البدع مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم إله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والإجلال، ويمكن القول بأن معظم الأسباب التى ذكرها «جيبون» ورد إليها انتشار المسيحية لم تؤثر ذلك الأثر ولم تكفل له الذيوع فى أرجاء الأرض إلّا لأنها كانت مشفوعةً بكثير من تلك القضايا الوهمية التى كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة، فإن إلها لم يخلق وكائناً لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به إلّا الفلاسفة العالمون، وأما الأخلاط ضعاف العقول من الناس فإنهم قد ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة إدراكهم عن أن تصل إلى القول بأنه ليس له صورة محدودة فى نفوسهم، فكانوا يتأففون

ويهزءون ويضحكون من أولئك الفلاسفة ويرمونهم بالبله أو قصور الذهن ».

« طاشت النفوس فى الأزمنة القديمة، وضلّت الصراط السوى، وقست القلوب وانتهكت الحرمات فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس ويدعوهم إلى ما جاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر. ولم يسلم أتباع المسيح من أن يصيبهم فى إيمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم، فتمثل الإله لهم فى صورة آدمى يمشى بينهم ويشاركهم أفراحهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال كما كان يبكى فى القبور وينام فى الحظائر، ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب، فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية. ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان، فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ عند اليونان، وكذلك اتخذوا العذراء وسيسليا وغيرهما آلهة للجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى الهات لدى اليونان ».

« ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون ما لصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية ولكنهم لم يفلحوا ».

فالدين بما فطر الناس عليه، قد نراه اتجاهاً غريزيا أو ميلاً فطريا بحكم ما ركّب من الطبيعة البشرية من وجود قوّة خفيةً تسيطر عليهم وعلى ما حولهم، أو لحاجتهم النفسية إلى ما يشبع أرواحهم، أو يبرر هواتفهم اللاشعورية، ففى أعماق اللاشعور من كل إنسان ما يرهص بأشياء لا يسيطر عليها عقله قد نسميها إلهاماً وقد نسميها هواجس، ويقول البعض إنها الحاسة السادسة، ومهما يكن من أسباب هذه الفطرة ودواعيها فإنها فضلاً عن إنها كامنة فى الإنسان فإنها تدفعه إما إلى التعبير عنها أو تبريرها بما يألفه من أفكار غالباً ما يمتصها من المجتمع الذى يعيش فيه، أو ما يلوذ به من معتقدات قد تقوم مقام الدين وتغدو فى النهاية ديناً يؤمن به كما هو الحال فى البوذية والكنفوشية، أو يتجه إليها بعقله فيغمره الضوء الإلهى بالنور ويغذيه باليقين، وكلما كان الدين عقيدة يقبلها العقل ويتمثلها الوجدان كان أقرب إلى النفس وأدعى إلى اليقين، ولا يقبل العقل ما يخالف الطبيعة البشرية أو ينكر قانون الطبيعة أو سنّتها الأزلية فالدين الحق لا يقهر الضمير ولا يبطل الوجدان ولا يجفو العلم.

فلما جاء الإسلام كان هادياً للنفس البشرية من نوازع الضلال والشرك، مؤتلفاً مع الطبيعة البشرية لا يشذّ عنها، مصدقاً للعقل والعلم، حاثاً على كشف أسرار الكون والسيطرة عليها، لذلك كان دين الفطرة ودين العقل.

(وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمٰن الرحيم. إنّ فى خلق السموات والأرض

واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كلّ دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون[١٣]).

(الله لا إله إلّا هو الحىّ القيّوم لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلّا بما شاء وسع كرسيّه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلىّ العظيم[١٤]).

(ذلكم الله ربّكم لا إله إلّا هو خالق كلّ شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ[١٥]).

هذا هو الله جلّ جلاله فى الإسلام واحد، أحد لا شريك له ولا كفاء، لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وهذا هو الإيمان فى الإسلام معرفة صافية فى إدراك وحدة الوجود فى وحدة الخالق فلا يضل عنها إنسان ولا ينبذها عقل، فإذا هدى فإلى الحق يأمر بالصلاة والصوم والزكاة وحجّ البيت، وهى جميعاً مما تسمو بها النفس بالإيمان إلى أعلى علّيين ، فلا يكتمل الإسلام بغير الإيمان فالإسلام إذعان وقبول رغبة أو رهبة ، والإيمان اتصال ما بين النفس فى صفائها والخالق فى قدرته اتصالاً يقوم على العقل والفكر والتدبّر فى خلق هذا الكون وسنّة الله التى لن تجد لها تبديلا اتصالاً يسمو إلى الفناء فى الذات الإلهية عن حب ويقين، حباً يتصل بالحياة وتوقير الحياة فمحبة الخلق من محبة الله، ويقيناً بما أنعم الله على عباده وبما فضّل الإنسان وكرّمه على سائر خلقه وفى قوله تعالى :

(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم[١٦]).

والصلاة صلة ما بين الله والعبد يرقى بها الإنسان إلى الكمال الروحى ويفنى خلالها فى الذات الإلهية، فيغمره نور اليقين بالإيمان ليرى نفسه قريباً من الله وأن الله معه فى كل حين :

(وإذا سألك عبادى عنّى فإنّى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلّهم يرشدون[١٧]).

وليست الصلاة سجوداً وركوعاً وقياماً وقعوداً وتلاوة وتكبيراً، وإنما هى فى السجود والركوع والقيام والقعود والتلاوة والتكبير ذكر لله واتصال به جلّ شأنه فى كلّ ما يقوم به

---

(١٣) البقرة : ١٦٣ ، ١٦٤ .
(١٤) البقرة : ٢٢٥ .
(١٥) الأنعام : ١٠٢ - ١٠٤ .
(١٦) الحجرات : ١٤ .
(١٧) البقرة : ١٨٦ .

الإنسان من حركة الحياة، فما هذه الحركات التى تؤدّى خلال الصلاة إلاّ رمز لحركة الإنسان الدائبة فى الحياة وعلى الأرض، يأنس فيها إلى الله ويذكره ويشكره فى كلّ حركة من حركات حياته وفى السراء وفى الضراء . وكأن الله معه على الدوام، فهذه الحركات فى الصلاة مما لم يرد تفصيلها فى القرآن ولكنها مما سنه النبى الكريم نظاماً مقرراً يربط المسلم بذكر الله على الدوام حيثما كان وأينما كان وكيفما كان، فإذا كانت لها أوقات محددة تتواتر الواحدة بعد الأخرى على مدى اليوم، فلا يفوت ذكره تعالى قلب إنسان يتجدد الذكر ويبقى اسمه تعالى وحمده جلّ شأنه على كل لسان وفى كل وقت:

(فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون[١٨]).

(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار[١٩]).

(واذكر ربّك كثيراً وسبح بحمد ربك بالعشىّ والإبكار[٢٠]).

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً[٢١]).

(قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربّه فصلى)

(كى نسبحك كثيراً . ونذكرك كثيراً . إنّك كنت بنا بصيراً[٢٢]).

(واذكر ربّك فى نفسك تضرّعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين[٢٣]).

(واذكر ربّك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربّى لأقرب من هذا رشداً[٢٤]).

(فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً[٢٥]).

(ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون[٢٦]).

(ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً[٢٧]).

(ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلاّ هو فأنى تؤفكون[٢٨]).

---

(١٨) البقرة : ١٥٢ .
(١٩) آل عمران : ١٩١ .
(٢٠) آل عمران : ٤١
(٢١) الأحزاب : ٢١ .
(٢٢) طه : ٣٢ - ٣٤ .
(٢٣) الأعراف : ٢٠٥
(٢٤) الكهف : ٢٤ .
(٢٥) النساء : ١٠٣ .
(٢٦) الأنفال : ٤٥ .
(٢٧) الأحزاب : ٤١ .
(٢٨) فاطر : ٣ .

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكلون[٢٩]).

(الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون[٣٠]).

فإذا كانت حركات الصلاة هى التعبير عن حركة الحياة العامة فإن ذكر الله فرض دائم لا فى الصلاة وحدها ولكن فى كل حركة من حركات الحياة وما الصلاة إلّا رمز لذكر الله وتجديد لهذا الذكر الدائم المستمر.

وما الصلاة إلا عبادة وسمو وتقديس وإيمان إذا تجردت من هذه المعانى غدت ولا معنى لها، ففى قوله تعالى:

(ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[٣١]).

وهذا هو جوهر الإسلام فى صفائه وقوته ليس عبادات وطقوساً تؤدّى دون وعى أو إدراك يعبّر عنه سيد أمير على «بالإقرار الشفوى دون العمل الخالص» وهذا هو معنى الصلاة اتصال بالله وتجرد له وتسبيح بقدرته وذكر ودعاء لا تختص بمكان ولا يختص بها مكان من سطح الأرض أو تحت السماء نقام وأينما تقام فهو مكان طهور ما توجّه الإنسان إلى الله بقلب سليم وما المسجد إلّا منتدى للمسلمين عامة يؤمّونه للصلاة كما يؤمونه لمناقشة أمورهم ومصالحهم، أو للمذاكرة والدراسة فى أمور الدين والدنيا فهو مكان للصلاة والدراسة وبرلمان تناقش فيه على حد سواء شئون المسلمين العامة والخاصة، وحيث يلتقى المسلمون فى المسجد يتساوون جميعاً فى إبداء الرأى والمناقشة كما يتساوون جميعًا أمام الله فى الصلاة فتسمو حرية الرأى بهم إلى النظر الصائب والعدالة المطلقة بين الجمع كبيرهم وصغيرهم.

وحين يتجه المسلمون فى صلاتهم إلى مكة وإلى بيتها المحرم حيث قامت الرسالة فلأجل أن تبقى ذكرى البعث ومولده حيّة فى أذهانهم، وليكون هذا الاتجاه رمزاً لوحدة المسلمين على الزمان.

والصوم كالصلاة عبادة وقنوت وتجرد لله ورياضة للروح وتحرّر من طغيان المادة وشهوات الجسد وكمال للتقوى، قال تعالى:

---

(٢٩) الأنفال : ٢ .

(٣٠) الحج : ٣٥ .

(٣١) البقرة : ١٧٧ .

(ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون[٣٢]).

وهو مران للقدرة الإنسانية على ملاقاة الشدائد، ولقوة الإرادة على قهر النفس. فيما ترغب فيه من لذة أو شهوة وحين تتحرر النفس من شهوة الجسد ولذاته تسمو على مادّية الحياة لتتجرد لله وتفنى فى ذاته العلية فترقى إلى المعرفة عن طريق التأمل فى عظمة هذا الكون وعظمة خالقه. وفى قهر النفس مران للقدرة الإنسانية على ملاقاة الشدائد بالشجاعة والصبر، فالانسياق وراء اللذة والاسترخاء للترف وراحة العيش مما يفقد الشعوب قوّتها وشجاعتها فالترف مجلب للدعة والاسترخاء مذهب للشجاعة كما يرى ابن خلدون، وكان ما يخشاه عمر على المسلمين أن تفتنهم مغانم الفتح افتتاناً ينسيهم المبادئ التى أظهرتهم على عدوّهم، فتتغيّر نفوسهم فيغير الله ما بهم. فالقدرة الإنسانية ليست إلّا مزيجاً من التفاعل بين القوى المعنوية والقوى المادية فى الإنسان « فإذا زادت القوى المعنوية فى الجماعة - كما يقول هيكل - سواء كانت هذه القوى روحية أم خلقية أم عقلية أدّى تفاعلها مع القوّة المادية إلى سمو الجماعة وعظمتها. ذلك بأن القوى المعنوية هى التى تدفعنا إلى طلب الكمال الإنسانى وإلى الدأب فى سبيله، والجماعة مع ذلك لا غنى لها عن قواها المادية ومضاعفة نشاطها، وهذه القوى تزداد نشاطاً وإنتاجاً بدافع من القوى المعنوية، فإذا ضعفت معنوياتنا ضعف نشاطنا المادى وتضاءل إنتاجنا ».

والزكاة فريضة تفّرد بها الإسلام وتوجب فى أبسط ما تذهب إليه إفراد نصيب معين من مال الغنى للفقير، وهى عبادة من حيث إنها فريضة وهى قاعدة أخلاقية من حيث إنها أساس للتكافل الاجتماعى، وإن كانت قواعد الأخلاق مما قامت عليه الشريعة بل إنها فى جوهرها قانون للأخلاق الإنسانية فى أعماق الضمير، فحين رأى عثمان بن عفان فى خلافته أن موارد بيت المال قد كثرت وفاضت قصر الزكاة على الأموال الظاهرة وهى زكاة الزرع والثمار والماشية وترك للناس أن يؤدوا زكاة الأموال الباطنة وهى زكاة النقود وزكاة التجارة وتركهم لدينهم ولصدق ضمائرهم فى أدائها. ولما رأى الفقهاء فى هذا ما يخالف السنّة عللوه بالإنابة فقالوا إن عثمان أناب عنه بالنسبة للأموال الباطنة أرباب الأموال ليصرفوها فى مصارفها، فإذا ثبت أنهم لا يؤدّونها حملهم على أدائها وقام هو بتوزيعها، فكأنه ترك الناس لضمائرهم ومسئوليتهم عنها أمام الله والمسئولية فى الإسلام مسئولية أمام الله أوّلاً وقبل كل شىء. فمن البرّ من آتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب، ومن البرّ من آتى الزكاة وانفق مما رزقه الله.

---

(٣٢) البقرة : ١٨٣ .

ويقرن القرآن الزكاة إلى الصلاة فى مواضع كثيرة بقوله تعالى:

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين[٣٣]).

ويقول جلّ شأنه:

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون[٣٤]).

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً).

وللزكاة ثوابها عند الله أكرم الثواب ومثوبتها كمثوبة من آمن به وأقام الصلاة:

(وبشّر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون[٣٥]).

(الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانيةً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٣٦]).

والزكاة ما قررته الشريعة حقاً للفقير من مال الغنى والصدقات ما زيد عليها، وهى فى المكان الأول من فعل الخير يجزى عليها الإنسان الجزاء الأوفى، ويعظم الجزاء ما كانت سراً وخفية، وتبطل ما صحبها المنّ والأذى. يقول تعالى:

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كلّ سنبلة مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابلٌ فتركه صلداً لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلٌّ والله بما تعملون بصير[٣٧]).

وبيّن القرآن لمن تكون الصدقات فى قوله تعالى:

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله والله عليم حكيم[٣٨]).

---

(٣٣) البقرة : ٤٣ .
(٣٤) المؤمنون : ١ - ٤ .
(٣٥) الحج : ٣٤ - ٣٥ .
(٣٦) البقرة : ٢٧٤ .
(٣٧) البقرة : ٢٦١ - ٢٦٥ .
(٣٨) التوبة : ٦٠ .

فهى للفقراء وهم من لا يملكون ما يسد حاجتهم، وللمساكين وهم من كان كسبهم أقل من حاجتهم أو غير قادرين على العمل لعجز أو علّة أو لا يجدون العمل مع قدرتهم عليه، وللعاملين عليها أجراً لهم على تكليفهم بجمعها، وللمؤلّفة قلوبهم وهم من حرموا الكسب بسبب إسلامهم أو من أراد النبى أن يؤلفهم إلى الإسلام بالعطاء، وقد أبطل عمر عطاء المؤلفة قلوبهم عندما أصبح الإسلام قوياً وفى غير حاجة إلى ذلك، وفى الرقاب وتعنى مساعدة العبد على دفع ثمن عتقه، ويرى «ميرزا محمد حسين» أن يرتد هذا الحق بعد زوال الرق إلى من يسجن لعجزه عن أداء الدين أو دفع غرامة يحكم بها عليه فيستوفيها سجناً. وللغارمين وهم من يفقدون أموالهم بسبب دين لا يد لهم فيه كمن يتورّط فى ضمان مالى لمصلحة عامة أو لخسارة فى تجارة أو فى مشروع للكسب وعاد بالخسارة، وفى سبيل الله وتعنى الجهاد أو القيام بعمل لخدمة الإسلام والمسلمين، ولابن السبيل من الغرباء الذين ضلّ بهم الطريق أو انقطع عنهم مالهم لبعد الدار وانقطاع المدد.

والزكاة كالضريبة فى الدولة، ولكنها ضريبة تدفع طوعاً وحباً فى الله فإذا امتنع عنها المسلم أهدر ركناً من أركان دينه وحق لولى الأمر أن يقتضيها منه ويحمله على أدائها فحين امتنع بعض المسلمين عن أداء الزكاة أوّل خلافة الصديق قاتلهم فى سبيلها وقال: كما رواه البخارى «الزكاة حق المال. والله لومنعونى عقالاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها».

ويخلط كثير من المسلمين بين الزكاة والصدقة، فيرى الماوردى وآخرون أن الزكاة والصدقة أمر واحد، وإن ذهب كافة المسلمين إلى التمييز بينهما فالزكاة فرض والصدقة هبة والزكاة مقدرة شرعاً والصدقة على قدر ما يجود به صاحبها ولا حدود لها فى الشرع وقد أغفل المسلمون الزكاة إلاّ زكاة الفطر فتؤدّى آخر شهر رمضان أو ليلة عيد الفطر عن العائل وأهله وضيفه على مدى الشهر وحلّ الإفطار وهو فى ضيافته وبقيت الصدقة إحساناً وشفقةً.

والحج كما تعرف مؤتمر المسلمين يجتمعون فيه ليتعارفوا ولتتجدّد عواطف الأخوة فيما بينهم وليحجوا إلى البيت العتيق حيث أهلت على الدنيا أنوار السماء وحيث مشى التاريخ فى منزل الوحى بنور الجلال.

هذه هى أركان الإسلام وفرائضه من الوحدانية الخالصة والصلاة والزكاة والصيام وحجّ البيت تتخذ شعائر وقواعد مقررة هى مرقاة ومرساة للإيمان المطلق والمثل الأعلى للحياة الروحية والعقلية والطهر الإنسانى ونقاء الضمير وهى جميعاً مما تؤكده الشعائر والقواعد

المقررة فى نفوس الناس « فطالما كان النقص من طبائع البشر - كما يقول - موشيم مؤلف التاريخ الكنسى - فالحاجة إلى الطقوس الظاهرة والشعائر العملية لإبقاء جذوة الشعور الدينى متقدة فى نفوس العامة مما لايتنافى مع الإيمان والمحبة » والشعائر الإسلامية كما قررها القرآن وأوجبتها السنّة فى صورتها التى تجرى عليها ليست إلّا تعبيراً عن وحدة العقيدة فى وحدة الصورة العامة، فوحدة التلاوة والتعبير والحركة فى الصلاة تعبير عن العقيدة ووحدة الشعور ووحدة النظام واجتماع المسلمين على الصيام فى شهر معين هو شهر رمضان بالذات وبين أوقات معينة من اليوم تعبير عن الإيمان كما هو تعبير عن الوحدة العامة للمسلمين، والحجّ وهو أكثرها شعائر فإن لكلّ شعيرة فيه مغزاها الروحى والمعنوى ولعلها فيما نعتقد مما يتصل بمولد عقيدة التوحيد وبناء البيت العتيق على يد إبراهيم عليه السلام وبتطور رسالة السماء هذا التطور الذى نراه منذ بعث إبراهيم بعبادة ربّ البرّ والخير والصلاح ومن قفاه من الأنبياء والرسل ممن جهروا برسالة السماء ودعوا إليها حتى اكتملت على يد محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وفى تواتر هذه المناسك والشعائر كل عام ما يربط الحجيج وغير الحجيج بوحدة العقيدة منذ اتصل ما بين السماء والأرض حتى انقطع عن الناس خبر السماء بختام الرسالة، وفيما عدا الشعائر المقررة لفروض الإسلام وما تحمل من معان بالغة غاية السموّ نجد من أداب الإسلام وأخلاقياته ومعنوياته ما يقوم دستوراً للحياة فى كلّ صور الحياة وأسماها، وللحضارة فى أرقى ما تصل إليه الحضارة، يصوغ المعاملات والعلاقات الاجتماعية والسلوك الإنسانى على الحق والخير ولا يضع قيوداً على الضمير أو يحول دون تقدم الفكر ولا يكبل الإنسان بالزهد والتقشف ولا يرضى أن يسلم نفسه للترف والاستمتاع بل هو بين ذلك قواماً، ويدعو إلى التأمل والنظر فى خلق الله وإمعان الفكر ليسمو العقل إلى حقيقة الكون والكشف عن أسراره.

وليس هناك ما هو أبلغ مما جاء به القرآن فى هذا ولا نستطيع فى عجزنا إلّا أن نتلو من آياته تعالى ما يعبرعن حقيقته. فالأخلاق الإسلامية تقوم على المحبة ومبناها الأخوة، والعدل ومبناه المساواة، والرحمة ومبناها الإحسان والتعاطف، والصبر والأمر بالمعروف ومبناهما حب الخير للآخرين، والنهى عن المنكر ومبناه كل ما يسىء إلى النفس وإلى الآخرين. يقول تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون[٣٩]).

(وقضى ربك ألّا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو

---

(٣٩) النحل : ٩٠ .

كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً . ربّكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . وإما تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربّك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً . إنّ ربّك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنّه كان بعباده خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيراً . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً . ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلّا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً . ولاتقربوا مال اليتيم إلّا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحًا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . كل ذلك كان سيئه عند ربّك مكروها[٤٠]).

(قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألّا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلّا بالحق ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون . ولاتقربوا مال اليتيم إلّا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلّا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون[٤١]).

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون[٤٢]).

(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين[٤٣]).

(وقل ربِّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين[٤٤]).

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم[٤٥]).

(وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها[٤٦]).

---

(٤٠) الإسراء : ٢٣ - ٣٨ .
(٤١) الأنعام : ١٥١ - ١٥٢
(٤٢) المؤمنون : ١ - ٥ .
(٤٣) النحل : ١٢٦ .
(٤٤) المؤمنون : ١١٨ .
(٤٥) فصلت : ٣٤ .
(٤٦) النساء : ٨٦ .

ويقول عليه الصلاة والسلام:

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ويقول: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وبعد، أفنبغى من الحياة غير هذا رحمةً ومحبةً وألفة وعدلاً وخيراً واستقامة وتجنباً للرذائل والتزاماً بالفضائل « والفضائل والرذائل قيم لا تخضع للتقنين العلمى - كما يقول برتراند رسل - ولكن العلم إذا تخلى عنها ولم يجد لها تقديراً عادلاً كان مجلبة الشر ولنتجت عنه أسوأ النتائج » والتقدير العادل للقيم كما نرى هو بما تعكسه من نتائج على الحياة فإن كانت خيراً كانت القيم التى تحكمها خيراً وإن كانت شراً كانت القيم شراً، ولكن الخير والشر مما يتصل بالقيم ولا يخضعان بدورهما لمعيار مادّى ما لم تتحول تلك القيم إلى مدلولات مادية والزكاة والصدقات لها مقاييسها المادية وإذا قيل لا تسرق ولا تقتل ولا تزن فإن لكل منها دلالتها المادية، لذلك كان على الدين أن يفسر الفضائل والرذائل بدلالتها المادية المحددة حتى لا يضل العقل فى تجريدات مبهمة يفسرها كلّ إنسان على هواه لذلك قامت الشريعة الإسلامية على أسس منهجية منظمة حتى شعائر العبادات ليست فى ذاتها إلاّ تعبيراً ماديا عن الإيمان وهو ما نرد به على بعض الأوربيين الذين راوا فى العبادات الإسلامية تعقيدات افترضوا فيها التزيد.

فالإسلام تشريع لهداية الإنسان، هداية ترتفع به الى السماء ليرى نور الحق ونور الجلال فى الله وحده: لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم.. نور السموات والأرض.. فالق الحب والنوى يخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحىّ.. له ملك السموات والأرض لا إله إلاّ هو يحيى ويميت.. الحى لا إله إلاّ هو.. يسبح له من فى السموات والأرض هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئده.. وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً.. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.. ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون.. ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون.

وهداية تصل الانسان بالأرض التى يعيش عليها لتستقيم حياته على الحق والخير ما التزم بقواعد الدين وأخلاقه وآدابه وبما رسم له من حدود وبما سنّ من شرائع تقوم عليها حياة الفرد والجماعة متوائمتين فى توازن لا تطغى فيه الفردية على الجماعية ولا الجماعية على الفردية حيث يقوم الوازع الإلهى متسقاً مع وازع الضمير ليعرف الفرد واجبه نحو الجماعة ولتعرف الجماعة واجبها نحو الفرد فحقوق الفرد واجب على غيره من الأفراد وعلى الجماعة وحقوق الجماعة واجب على الفرد، فالحقوق فى الإسلام واجبات وتكليف حتى

قيل فى تعريف الفقة الإسلامى إنه «العلم بالأحكام الشرعية الثابته لأفعال المكلفين خاصة» فإذا ارتقى الحق إلى درجة الواجب وأصبح تكليفاً وإلزاماً لم يعد من الحقوق إلّا ما هو واجب وحق وتميز الحق فى الواجب.

ويقوم الوازع الإلهى على الإيمان وبدونه تختلّ القيم، فقد خلق الإنسان ضعيفاً وهو فى ضعفه ينشد منفعته ولو كان فيها ضرر للآخرين، فالمنفعة نزعة أصيلة فى الإنسان ولكن مردّها إلى الأنانية. ومن حق الفرد أن ينشد منفعته ويسعى وراءها ما لم تكن سبباً فى مضرة الآخرين والوازع النفسى عند الفرد هو الذى يحول بينه وبين تحقيق منفعته على حساب الآخرين، ويردّ الأخلاقيون هذا الوازع إلى الضمير، ويرونه أسمى ما يصل إليه الإنسان من ارتقاء ويقوم القانون الوضعى بتنظيم العلاقة بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة ويضع القيود على نوازع الفرد التى تضر بالآخرين، ولكن طالما استطاع الفرد خداع القانون وتجنب المضرة التى تقع عليه من مخالفة القانون فإن وازع العقوبة يتضاءل فى نفسه ولا يبقى فيها غير وازع الضمير، وهو وازع يختفى غالباً أمام المنفعة، فلكل إنسان مهما بلغ وازع الضمير فيه من القوة والأصالة حدّه من المنفعة، فإذا فاقت المنفعة وازع الضمير تغلبت المنفعة، وإذا كانت دون ما يراه الإنسان لقدرة رفض المنفعة، لا بوازع من الضمير ولكن المنفعة فى نظرة أقل مما يستوجبه تقديره لذاته، فإذا لم يزع الإنسان ما يفوق وازع الضمير من خوف الله ورهبته، طغت الأنانية وضعفت الأخلاق وأصبح باطن الإنسان غير ظاهرة «ومكنون أمره – كما يقول هيكل – غير ما يبدو للناس به ، فهو يصطنع الأمانه وليس ما يمنعه أن يتخذها ذريعةً لتصيّد المنافع، وهو يتظاهر بالصدق ولا يصدّه عن مجافاته جلب منفعة له، أخلاقٌ ذلك ميزانها ما أسرع ما يضعف صاحبها أمام المغريات، وما أسرع ما يجرى وراء الأهواء والغايات».

الإسلام وحرية الإرادة:

وكان القضاء والقدر أكثر ما ألم بالعقل الإنسانى وشغل به تفكيره منذ القدم من أى شىء آخر حين وقف الإنسان عاجزاً أمام سنة الكون والقانون الذى يحكمه منذ الأزل، ومازال العقل الإنسانى برغم تقدمه عاجزاً عن إدراك كثير من الظواهر التى تعجم عليه وسيبقى عاجزاً مهما أوغل فى السيطرة على الطبيعة، فكلما ازداد علمه ازداد إدراكاً لعجزه، فإن ما يكشفه كل يوم من أسرار الوجود يؤكد له على الدوام أنه ما زال يخوض فى نقطة من بحر لجّى لا نهاية له ولا قرار. ولم يختلف فكر الإنسان المعاصر وهو يخترق أجواز الفضاء

ويصل إلى القمر ويتطلع إلى ارتياد غيره من كواكب المجموعة الشمسية عن فكر هذا الإنسان الأوّل فى كهفه وفى بيئة صعيده المحدودة فى نظرته إلى السماء وإلى الظواهر الطبيعية العارضة التى تنغص عليه حياته من برق ورعد وزلازل وبراكين وأنواء ورياح ويقف دونها عاجزاً، فإن سيطرة الإنسان المعاصر على بعض الظواهر الطبيعية وإن أدت به إلى معرفة أوسع فقد وضعته أمام ظواهر أضخم وأعظم لم تخطر على بال الإنسان الأول أو إنسان الجيل الماضى، وأصبح أمام هذه الظواهر التى قادته إليها معرفته الجديدة أكثر عجزاً مما كان أجداده، وإن كان عجزه من قبيل الانبهار والتطلع واليقين أكثر مما هو عجز استسلام وخوف وشك، فالإنسان القديم فى عالمه القاصر وفى تصوراته المبهمة عن هذا الكون لم يدرك قط أن أرضه جزء من كلّ هذه المجموعة الشمسية التى تنتمى إليها أرضه وأنها بالنسبة إليها لا تزيد على حجم سنّ دبوس يلقى على مسطح الكرة الأرضية، ولم يدرك أن المجموعة الشمسية التى تنتمى إليها أرضه ما هى إلاّ واحده من ملايين المجموعات الشمسية فى بحر المجرة وأن هناك ملايين المجرات الأخرى تسبح فيها ملايين أخرى من المجموعات الشمسية.

أىّ كون هائل هذا الكون وأى صناع قادر عليه؟..

وهذه هى المعرفة التى تقود إلى الإيمان، الإيمان بما فى هذا الكون من خلق عظيم ومن إعجاز يفوق قدرة العقل الإنسانى على الخيال والتصور.

وهى المعرفة التى عناها جلّ شأنه بقوله تعالى:

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون[٤٧]).

(هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب والثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال[٤٨]).

(إنّ ربّكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين[٤٩]).

---

(٤٧) البقرة : ١٦٤ .

(٤٨) الرعد : ١٢ ، ١٣ .

(٤٩) الأعراف : ٥٤ .

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا فى كتاب مبين[٥٠]).

(ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير[٥١]).

(ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلّف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزّل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار. يقلّب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار[٥٢]).

(الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير[٥٣]).

(ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره..[٥٤]).

(الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح. المصباح فى زجاجة. الزجاجة كأنها كوكبٌ درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم[٥٥]).

وطالما ظلت معرفة الإنسان قاصرة عن إدراك القانون الكلّى الذى يحكم الأشياء والظواهر وستبقى قاصرة دون إدراك ظواهر بعينها كالموت والحياة – فسيبقى عجز الإنسان عن إدراك العلة خارج طاقته وقدرته العقلية ولا مندوحة له إلّا أن يردّها إلى إرادة أعلى وأعظم وهى ما عبّر الإنسان عنها بالقدر وما نعبر عنه بالإرادة الإلهية التى تحكم كلّ شىء بقدر وبسنة لا تبديل فيها ولا تحويل وهى السنة الإلهية التى تحكم العلل والمعلولات وتحكم الحاضر والغائب وفقا لقانون ثابت هو ماندعوه فى تعبيرنا القاصر بالقانون الطبيعى.

فالقدرية قديمة قدم الإنسان وقدم الفكر الإنسانى حين أقدم الإنسان على البحث فى العلل والمعلولات وربما كانت أعرق فى الوجود – كما يقول هيكل – من كل فكرة أخرى « فلما جاءت الأديان عرضت لها كظاهرة وردّتها إلى الإرادة الإلهية التى تحكم القانون الكلّى للأشياء والظواهر وتركت للإنسان حرية التفكير فيها ليدرك من سرّها ما يستطيع عقله القاصر أن يدرك. ويفسرها بقدر ما يجد لها من تفسير فقد خلق الله هذا الكون العظيم بما حوى ولكنه تعالى لم يقل لنا كيف خلقه وعلى أى صورة صوّره إلّا ما نرى منه، وترك لنا أن نتأمل وننظر ونبحث ونصل إلى بعض هذا القانون – ولن نصل إلى كلّه – لتكون لنا

---

(٥٠) الأنعام : ٥٩ .
(٥١) النور : ٤٢ .
(٥٢) النور : ٤٣ ، ٤٤ .
(٥٣) الملك ، ٣ ، ٤ .
(٥٤) الروم : ٢٥ .
(٥٥) النور : ٣٥ .

بعض السيطرة عليه وعلى قدر ما تصل إليه قدرتنا من أفاق الكون مسخراً لنا وفى خدمتنا نحن الإنسان الذى كرّمه تعالى وفضله على جميع خلقه.

(ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً[٥٦]).

وهذا الإنسان الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً قد سخّر له ما فى السموات والأرض لخدمته وراحته قد ترك الله له المقدرة على تسخيرها وكيف يسخّرها بما وهبه من عقل وتفكير ميزه بهما على بقية خلقه «ليرى من قدرة الله على ضوء المعرفة ما لا يراه فى دياجير الجهل».

وما يصيب الإنسان فى حياته مما يخضع لهذه القاعدة فما هو من سنة الكون الكلية كالخلق والحياة والموت فمردّها إلى هذا القانون الكلّى الذى يحكمها وما هو من الجزئيات كتسخير الحيوان لخدمة الإنسان واختراع الآله والسيطرة على بعض الظواهر بالكشف عن القانون الذى يحكمها فأمره إلى الإرادة الإنسانية فالكهرباء طاقة لا ندرك حقيقتها ولكننا ندرك كيف نذللها وكيف نسخّرها لمنفعتنا بالكشف عن القوانين التى تحكمها وتسيطر عليها. والخلق والحياة والموت هى الأخرى من تحت الإرادة الإلهية إلّا أنها بدورها مما يخضع لهذا القانون الكلى. فهذا الكون اللانهائى لا تدرك الأبصار أو الفكر مداه تحكمه قوانين أزلية ثابتة نعجز بعقلنا القاصر أيضاً عن تصّور مدى دقتها، فإذا تصّورنا توقف جرم من الأجرام عن مسيرته الأزلية وحركته الدائمة فى هذا الكون لجزء من الألف فى الثانية مثلاً لأحدث توقفه هذا على ضآلته من الآثار ما ليست لنا قدرة على تصّوره فى نظام الكون، وقد يكون فى هذا التوقف هلاك هذا الجرم ودماره. والحياة والموت مما يخضعان لهذا القانون الكلى فى وجودهما اللامتناهى ولكن الحياة لا تخصب ما لم تتوفر لها مقومات معينه والموت وإن كان أزليا وقدراً مكتوباً - فلكلّ أجل كتاب - فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون، إلّا أن له أسبابه من مرض أو نوازل عارضة مما لا يدخل فى إرادة إنسان ولا يخضع لهواه حتى قتل النفس وإن بدا عملاً إراديا فإنه لا يتم دون سبب يحكمه أو يدعو إليه من إرادة الإنسان ولكن الدواعى التى أدّت إليها ليست من قبيل الاختيار أو الإرادة الحرة وإنما حكمتها عوامل عديدة لم يكن منها فكاك أو خلاص.

وقد تبدو حرية الاختيار فيما يتصل بحياة الإنسان وسلوكه واتجاهاته مما يخضع للإرادة الإنسانية خضوعاً تامًّا ولكن الواقع يخالف ذلك فإن عدة إرادات إنسانية أخرى مما يؤثر

---

(٥٦) الإسراء : ٧٠ .

فيهاوتتأثر بها فتتغير تبعاً لها اتجاهات الإنسان وسلوكه، فهذه الإرادة التى نملكها ليست إرادة مطلقة وإنما هى إرادة نسبية بقدر ما يتدخل فيها من إرادات الآخرين والظروف الاجتماعية التى تتصل بها وتؤثر فيها، فما من جيل إلاّ ويتحمل غير مختار آثار جيله السابق كما يحتمل غير مريد شرور جيله. ثم إن الإرادة ذاتها لا تعمل حرةً تمام الحرية من أى قيد نفسى أو فسيولوجى أو بيئى من قبيل المصادفة ولعلّنا نجد فى هذا تفسيراً لانحراف بعض الأحداث التاريخية عن سيرها العام لنذهب مذاهب شتى فى تفسير أسباب ذلك فيقال إن الإنسان منفذ غير واع لإرادة الله ويقال «اليد الخفية» كما يرى «آدم سمث» و«مكر العقل كمايرى «هيجل» فى تفسير القوى التى تدفع الإنسان للعمل من أجلها ولأجل غاياتها وإن ظن أنه يعبر عن ذاته ويحقق رغباته، وأخذ «تولستوى» بما يشبه هذا التعليل حين يقرر أن الإنسان يعيش واعياً لنفسه ولكنه أداة لا واعية لتحقيق الغايات التاريخية، وكل هذا هراء - كما قلت فى كتابى التاريخ والسير - فالأحداث لا تحكمها إرادة الإنسان أو رغبة الجماعات فحسب وإنما يؤثر فيها ماضى الانسان كما تتأثر بعديد من العوامل المتنافرة والمتسقة التى تتحكم فى طبيعة المجتمع الإنسانى والتى تفوق فى الغالب إرادة الإنسان وإن كانت من صنعه ومن نتاج تفكيره فالإنسان لا يعيش فى عزلة مطلقة ينمحى فيها الفعل وردّ الفعل للإرادة الجماعية وإنما يعيش فى زمن يتأثر بظروفه وفى مكان يتحكم فى إرادته.

إلاّ أن هذا النصيب النسبى من حرية الإرادة هو ما تقع فى دائرته الأعمال الإرادية للإنسان وفيها تتحدد مسئوليته ويتحدد سعيه فى الحياة. وهو على ضآلته حافز قوى لعمل الإنسان لتحقيق ذاته والتعبير عن إرادته، وهو الحد الفاصل بين الجبر والاختيار فى الإسلام وبين القدرية وحرية الإرادة الإنسانية فقد «دعا الإسلام - كما يقول سيد أمير على - إلى الإيمان بقوة سماوية عليا تهيمن على الكون، وقرن ذلك الإيمان ببث روح الاعتماد على النفس وتقرير مسئولية الإنسان عن عمله تأسيساً على حرية الإرادة الإنسانية، ومن مزايا القرآن الكريم أنه يجمع بصورة فريدة تبدو متناقضة بادئ الأمر بين وجود إرادة إلهية تهيمن على جميع الكائنات وتؤثر فى الناس وفى أفكارهم تأثيراً مباشراً وبين تأكيد حرية الإرادة الإنسانية وحرية التفكير وليست هذه الظاهرة بقاصرة على القرآن الكريم وحده فهى فى الكتاب المقدس أيضاً، إلاّ أن مسئولية الإنسان عن عمله جلية واضحة فى القرآن وإن تبادر هذا السؤال إلى الذهن : كيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين ؟ إذ يبدو لأول وهلة أن ثمة تناقضاً بين محاسبة الإنسان على عمله وهى قوام الأخلاق الإسلامية ووجود قوة قادرة تسيطر على أعماله، ولكن الفكرة الإسلامية لا تفرق بين الإيمان بوجود إله حىّ

قادر والإيمان بقدرة الإنسان على الارتقاء والكمال وهو ما يكشف لنا على هذه الحيرة ويفسرها».

وهذا التناقض الظاهرى هو ما حمل بعض المستشرقين على نعت الإسلام بأنه دين قدرى وأن الجبرية قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية فإذا كانت المعصية قدراً مقدوراً، فلم حساب الله عليها؟.

وهذا التفسير هو فرق ما بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى فى إدراك هذا التناقض وفهمه فبينما يرى الغربيون الإرادة الحرة مقيدة بإرادات الآخرين وبالتنظيم الاجتماعى للأفراد أو بالخوف والشعور بالمسئولية يذهب الفكر الإسلامى إلى تقرير المسئولية تبعاً للإرادة الحرّة والإدراك الكامل لعلاقة الإنسان بالكون ثم علاقته بالآخرين فما يتصل بعلاقة الإنسان بالكون، وهى علاقة أزلية غير خاضعة للزمان والمكان، خلقه وحياته ومماته وكل ما يتصل بذلك من حياته الدنيا وإن كان ذلك كله وفقاً لقانون ثابت لا يتغير هو الذى خلق الله به وعليه هذا الكون الهائل الذى لا تدركه الأبصار ولا تعيه العقول وهذا القانون هو الذى يكون السببية وهى العلاقة بين الفعل والقانون الذى يحكمه» فكل شىء قد خلق بقدر:

(الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً[٥٧]).

(إنا كلَّ شىء خلقناه بقدر. وما أمرنا إلّا واحدةٌ كلمح بالبصر[٥٨]).

(إنّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً[٥٩]).

(وآيةٌ لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ فى فلك يسبحون[٦٠]).

ويرى سيد أمير على، أن كلمة «قدر» هنا تعنى القانون الطبيعى أو ما نعنية بالقانون الكلّى الذى يحكم الخلق جميعاً وهو من آياته تعالى التى تعبّر عن هيمنته جلّ شأنه على كافة خلقه:

(ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثّ فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير[٦١]).

---

(٥٧) الفرقان: ٢.
(٥٨) القمر: ٤٩ - ٥٠.
(٥٩) الطلاق: ٣.
(٦٠) يس: ٣٧ - ٤٠.
(٦١) الشورى: ٢٩.

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كلّ شىء قدير[٦٢]).

(ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلّا كلمح البصر أو هو أقرب، إن الله على كلّ شىء قدير[٦٣]).

(وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديراً[٦٤]).

(وإن من شىء إلّا عندنا خزائنه وما ننزّله إلّا بقدَر معلوم[٦٥]).

(وإنّا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون[٦٦]).

(والله خلق كلّ دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إنّ الله على كل شىء قدير[٦٧]).

(وهو الذى مرج البحرين هذا عذبٌ فرات وهذا ملحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً . وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً[٦٨]).

(لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كلّ شىء قدير[٦٩]).

كلّ هذه وآيات غيرها لتدل على هيمنة الله على كلّ شىء وأنه خالق الخلق الواحد المتعال، خلقه بقدر على سنّة لا تتحوّل ولا تتبدّل ثم استوى على العرش:

(إنّ ربّكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستّة أيام ثم استوى على العرش[٧٠]).

وهذا القانون الإلهى سنّة الله التى لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً هى التى تحكم الكون وتسيّره من الأزل إلى الأبد والتى تحكم فى نطاقها الكونى مسيرة الإنسان وفيما عداها فالإرادة الإنسانية حرّة، والإنسان مسيطر مطلق فى نطاق وجوده المحدود، فقد زانه الله بالعقل وهو جزء من وجوده الأعظم خلقه على صورته « فالإنسان - كتعبير العقاد - روح علوىّ سقط إلى الأرض من السماء ليحمل مسئولية أعماله ووزر نفسه »:

(بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره[٧١]).

فإن شاء ارتفع إلى أعلى عليين، وإن شاء هوى إلى أسفل سافلين.

(ويدع الإنسان بالشّر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا[٧٢]).

ألا إن رحمة الله تسع كل شىء:

---

(٦٢) الأحقاف : ٣٣ .
(٦٣) النحل : ٧٧ .
(٦٤) الفتح : ٢١ .
(٦٥) الحجرة : ٢١ .
(٦٦) الحجر : ٢٣ .
(٦٧) النور : ٤٥ .
(٦٨) الفرقان : ٥٣ - ٥٤ .
(٦٩) المائدة : ١٢٠ .
(٧٠) الأعراف : ٤ .
(٧١) القيامة : ١٤ - ١٥ .
(٧٢) الإسراء : ١١ .

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم[٧٣]).

على أن يكون ذلك بالتماس العون منه تبارك وتعالى والتوجه إليه جلّ شأنه بقلب سليم:

(وإذا سألك عبادى عنى فإنّى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلّهم يرشدون[٧٤]).

فالله خالق كل شيء وله مفاتح الغيب الحى القيوم الكبير المتعال لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، يسبح له من فى السموات والأرض، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير، وبكل خلق عليم، وسع كل شيء علماً، وكل شيء هالك إلّا وجهه، فإذا أدركنا هذه القدرة إدراك بصير، لأدركنا كيف خلق الله الكون بنظام ثابت وسنّة لا تتبدل وأنه جعل لكل شيء سبباً فالحياة حقيقة هذا الوجود كلّه، ولكنها لا تنشأ فى فراغ، وإنما تخضع لقانون أزلى وترقى وتتطور وتتكيف وفقاً لهذا القانون، فبدون عملية التلقيح فى النبات لا يزهر ولا يثمر، وبغير اجتماع الحيوان المنوى للذكر إلى بويضه الأنثى فى الرحم لا يتم الحمل ولا يتكون هذا الجنين الذى يحمل صفات الأبوين، فتنحدر منه إلى أبنائه وسلالته، كما انحدرت إليه صفات أجداده، وكلما تباعدت الصفات بتباعد القرابة بين الزوجين ضعفت الخصائص المشتركة بينهما، لذلك كان زواج الأقارب مكروهاً وكان الزواج من الأدنى فى القرابة كالأخت والعمة والخالة وابنة الأخ وابنة الأخت محرماً.

والموت، كالحياة، حقيقة أزلية فكلّ شيء هالك إلّا وجهه وهو قدر على كلّ حىّ، فقد جعل لكل شيء أجلاً لا ريب فيه حتى السموات والأرض لها أجلها المحدّد فى علم الغيب، ولكل أمة أجلها (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقد خلط المفسرون بين الموت قدراً مقدوراً على كلّ حىّ وبين تحديد الأجل، فالأجل محدود بقدرة الحىّ على البقاء والاستمرار فإذا فقد القدرة جاءه الموت، وما من حىٍّ إلّا ويفقد القدرة على البقاء والاستمرار فى يوم من الأيام فالمرض حين يصيب جسد الحىّ ولا يقدر على رده ينزل به الموت والجندى حين تصيبه رصاصة قاتلة تميته، وحين يدهم القطار إنساناً أو دابة يقتلها وحين تهوى الطائرة محترقة يقضى على من فيها. فإذا نجا ناج فلسبب خرج به من الخضوع للأسباب التى أدّت بالآخرين إلى الموت، وحينذاك نقول إنه نجا بمعجزة. وقد أثبت العلم الحديث أن الشمس تذوى وتذبل يوماً بعد الآخر، ولكن على أى مدى تخفت إلى الأبد؟

---

(٧٣) الزمر : ٥٣ .

(٧٤) البقرة : ١٨٦ .

هذا ما يعلمه الله وإن اجتهد العلم فى تقديره وقياسه بالسنين والأرقام التى لا تدرك الحقيقة ما دام العلم قاصراً على الشمول والإدراك الكامل وهما لله وحده فمهما بلغ علم الإنسان فما أوتى من العلم إلاّ قليلاً فالحياة سائرة إلى زوال ولكنها خاضعة لقانون أزلى يحكم الحياة كما يحكم الموت، وهذا القانون الأزلى هو من صنع القدرة الإلهية أو هو جماع الخلق كله وهو ما نسميه بالقدر وحين نغفل عنه نصفه بالجبرية، وما عدا ذلك مما يتعلق بمسيرة الإنسان وعمله على الأرض فمن صنع الإنسان وحده سواء كان منه وحده أم شاركه فيه غيره فإرادته حينئذ تتأثر بإرادة غيره فرداً أو جماعةً فليست هناك إرادة حرّة مطلقة للإنسان ما لم يتحرر من مؤثرات الماضى والحاضر والبيئة والوراثة ولن يتحرر منها فهى قيد حياته ووجوده. تتحدّد بها مسئوليته ويحاسب على إرادته عنها بقدر ما تتحكم فيه وتحكمه فقيل الضرورات تبيح المحظورات، وفى قوله تعالى:

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم[٧٥]).

فالإرادة الإلهية حرّة مطلقة منزهة غير باغية فهى حكمة الوجود وإن غابت عنّا أسبابها فإذا أدركناها عقلناها وقلّ ما ندركه منها، «ولا يقال - كما يرى الإمام محمد عبده - إن غاية حكمته الوجوب عليه لأنه هو جاعل الغاية، وكون الغاية غاية، لأنه المبدع الذى لا يتأثر بشىء ، ولا يحكم عليه آمر ما أراده».

فغاية ما يدركه المرء - كما يقول الإمام - «أن فى الكون قوّةً أسمى من أن تحيط بها قبدرته، وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطته، فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يعرفه على مقتضى علمة وإرادته، خشع وخضع ورد الأمر إليه فيما بقى، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى، فالمؤمن كما يشهد بالدليل والعيان يرى أن قدرة مكوّن الكائنات أسمى من قوى الممكنات، ويشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ، عقلية كانت أو جسمانية ، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله» ويقرر فى ذلك «أمرين عظيمين» يراهما «ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية»:

«الأوّل: أن العبد يكسب بإرادته وقدرته، ما هو وسيلة لسعادته» .

«والثانى: أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده وأن لا شىء سوى الله يمكن له أن يمدّ العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه».

---

(٧٥) البقرة : ١٧٣ .

فالإنسان حرٌّ فى إرادته ومسيطر مطلق - فى إطار وجوده المحدود - على أعماله مسئول عنها ومحاسب عليها.

(ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه. وكان الله عليماً حكيماً . ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً[٧٦]).

(قل ياأيها الناس قد جاءكم الحقّ من ربّكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل[٧٧]).

(.. فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[٧٨]).

وفيما يروى عن الفاروق عمر ما يدنينا من هذه الحقيقة، فما نجد بياناً أجلى من بيانه ولا أحلى وهو يردّ بها على أبى عبيدة بن الجراح فقد روّع الناس الطاعون فى الشام وأخذ يفتك بهم فتكاً شديداً وكان عمر فى طريقه إلى الشام لينظم شئونه بعد فتحه فلقيه عند سرغ على مقربة من تبوك بعض أمراء الجند وفيهم أبو عبيدة وعلم منهم أنباء الطاعون وفتكه بالناس، فاستشار من معه من المهاجرين والأنصار فى المسير أو العودة واختلف القوم فيما بينهم فمن قائل: خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده، ولا نرى أن يصدّك عنه بلاء عرض لك، وقائل: إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه، فجمع إليه مهاجرة الفتح من قريش واستشارهم فأجمعوا على العودة، ونادى فيهم عمر بعد أن صلّوا الصبح قائلاً: إنى راجع فارجعوا» ولم يكن أبو عبيدة ممن حضر مشاورات عمر، فلما عرف ذلك قال له: «أفراراً من قدر الله ياعمر؟» ونظر عمر إلى أبى عبيدة عاتباً وهو يقول:

«لوغيرك يقول هذا ياأبا عبيدة؟ نعم: فراراً من قدر الله إلى قدر الله» ثم أردف بعد إطراقة «أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله، ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله».

«نعم. فراراً من قدر الله إلى قدر الله».

أى بيان أروع من هذا؟! فإن ما عناه عمر هو الفرار من قدر مدرك إلى قدر غير مدرك. يتوقّى فى الأول ما يعرف أنه ملاق حقاً، وأن هذا الذى يلقاه قد يعرضه للهلاك حتماً فعليه ألّا يلقى بنفسه إليه كمن يتوقى ضربة السيف بدرعه أو بحركة من جسمه لأنه يعرف إن إصابته فستقتله، وذلك معنى قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة). وفى الثانى لا يستطيع أن يتوقّى ما لا يعلم وما يخرج عن إرادته فإذا عضته حيةٌ لم يرها ليتقيها

---

(٧٦) النساء: ١١١.

(٧٧) يونس: ١٠٨.

(٧٨) التوبة: ٧٠.

أو يقتلها، فإن أذى الحية قد ناله غصباً عنه ومن غير أن يكون لإرادته دخل فيه، وعليه أن يلجأ إلى الترياق من سمومها، فإذا غلبه السم فقتله فتلك إرادة الله ممثلة فى قانونه الأزلى الذى يحكم الأشياء والذى جعل سمّ الحية قاتلاً، فمن يصيبه قتله ومن لحقه بالعلاج برئ منه وقد لا يصيب العلاج فيكون هلكه، وهذا هو القدر الذى لا منجاة منه لأن الإنسان لا يعرف كيف يتّقيه فإذا عرف أصبح مما تحكمه إرادته وحقّ عليه أن يلوذ بإرادته ليقى نفسه السوء. فمنذ سنوات كانت حمّى التيفود تميت من تصيبه فى الغالب فلما عرف الإنسان كيف يقى نفسه منها لم تعد بذات خطر وأصبحت مما تحكمها إرادته، والخنّاق أو الدفتريا هى الأخرى كالتيفود، وقد خلق الله ميكروب التيفود وميكروب الدفتريا وخلق أيضاً ما يتقيهما به فلكل شىء ضدّه ولكلّ سمٍّ ترياقه وعلى الإنسان أن يسعى – وقد زانه الله بالعقل – ليقى نفسه من غوائل محيطه. فالإرادة الإنسانية بعض من الإرادة الأزلية وإن كانت لا تبلغها ولن تبلغها أبداً، ولكنها تبلغ منها ما تستطيع به السيطرة على ما يتصل بالإنسان فى محيطه المحدود من هذا الكون الهائل العظيم الذى لا تدركه الأبصار ولا تصل إلى صورته العقول مهما امتدّ بها الفكر أو شطح بها الخيال وحيث تتناهى الحرية عند العبد لا تتناهى عند الخالق.

فالقضاء فى العقيدة الإسلامية هو ما اتصل بسنة الكون منذ خلق الله الكون وهو قانون أزلى ثابت لا يتغير يؤثر فى الإنسان ويتأثر به دون أن يكون له دخل فيما وهبه الله من عقل يسوس به أمره فبقدرة هذا العقل على الإدراك تجب التكاليف، وهى مما لا يقع أو يجب على فاقد العقل أو ناقص الإدراك، بل إن من التكاليف الدنيوية ما يعفى منها صاحب العاهة الذى تحول عاهته دون قيامه بها:

(ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حرجٌ..[٧٩]).

(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرجٌ إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم[٨٠]).

(.. وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً[٨١]).

ويرى الإمام محمد عبده أن فعل العبد ما لم يكن له لبطل تكليفه به «إذ لا يعقل أن يدعى شخص إلى ما لا يقدر عليه. وأن يكلف ما لا أثر لإرادته فيه. ولو كان فعل القاتل

---

(٧٩) النور: ٦١.

(٨٠) التوبة: ٩١.

(٨١) الأحزاب: ٥.

ليس له لا متنع القصاص، ولم تكن فيه لنا حياة، فالعقل والشرع والحس والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله. وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات أنما هو نسبتها إليه ... ولا يتصوّر اعتبارها موجودة إلّا إذا اعتبرت مستندة إليه مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البداهة كذلك، ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله تعالى وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والأختيار ما وهبنا فهو أمر نشاهده كل يوم، ندبر شيئاً ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان، ونتناول عملاً ثم تنقطع قدرتنا عن تنميته كلّ ذلك لا نزاع فيه، شمول علم الله لما كان ولما يكون، قام عليه الدليل ولا شبهة فيه عند المليّين، فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه، وأن يقرّ بنسبة عمله إليه كما هو بديهى عنده، ويعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده فى نفسه، وليس عليه بعد ذلك أن يرفع ببصره إلى ما وراءه، فقد نعى الله على المشركين قولهم – لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء – ووردت الأحاديث متواترة المعنى فى النهى عن الخوض فى القدر وسره».

وفى مقال له بالعروة الوثقى اقتبس منه «عثمان أمين» فى كتابه عن الإمام ما يأتى: «كلّ ما حدث له سبب يقاربه فى الزمان، والإنسان لا يرى من سلسلة الأسباب إلّا ما هو حاضر لديه، ولا يعلم ما فيها إلّا مبدع نظامها، وإن لكلّ منها مدخلاً ظاهراً فيما بعده، وإرادة الإنسان إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة، وليست الإرادة إلّا أثراً من آثار الإدراك، والإدراك انفعال النفس مما يعرض على الحواس، وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات، فللظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله فضلاً عن عاقل، وإن مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة، إنما هى بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته، وجعل كلّ حادث تابعاً لشبهه كأنه جزاء له».

ولا نرى بيننا وبين الشيخ الإمام خلافاً على ذلك فما هو خاضع لسنة الكون فمرده إلى خالق الكون وهو القضاء وهو ما يرادف «الحتمية» فى تفسير الماديين للعلوم الإنسانية والقانون العلمى فى تفسير الظواهر الطبيعية وما هو خاضع لمشيئة الإنسان وإدراكه وتفكيره فمردّه إليه وهو مكلّف به مسئول عنه محاسب عليه، وليس فيما جاء به القرآن الكريم من آيات فى هذا المنحى إلّا ما يدل على أن الله قد جعل لكل شىء سبباً وتتناهى هذه السببية أو العلية إلى قانون شامل هو سنّة الكون التى لا تتبدل ولا تتحول لأنها القانون الإلهى الذى صاغ عليه الكون وسيره منذ الخليقة وقبل الخليقة وهو ما لا يدركه الإنسان – كما قلنا – وإن خلق الله له العقل لإدراك بعضه ليذلله لنفعه ويسيطر به على ما يبتغيه من محيط حياته إذ كرّمه الله على خلقه وخلق كل شىء لنفعه، واتصال العقل بهذا القانون

الإلهى هو الحرية : حرية النظر والتأمل والكشف عن أسرار هذا الكون ما يمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة وفى هذا المعنى تتأكد حرية الإرادة الإنسانية كما تتأكد مسئولية الإنسان عن أفعاله.

فالعقيدة الإسلامية ليست مما ينتهى بالإنسان إلى التواكل وفرق ما بين التوكل والتواكل ، فالتوكل على الله ما هو إلاّ إيمان بقدرة الخالق وهو صلة ما بين الإنسان وربه يستلهمة الرشاد والهداية وسداد الخطى والتوفيق فى العمل ، فإذا اقترن العمل بالتوكل على الله فمن قبيل الاستمرار حتى لا يغفل العبد عن ذكر الرب، وأما التواكل فمن قبيل ترك أمور على عواهنها وسلب الإرادة الإنسانية ما أودعها الله من قدرة وتطلع وما هو إلا بهتان ليس من الدين فى شىء.

وحين يرشد الإنسان إلى سبيله وغايته فى الحياةبالإيمان بالله تطيب له الحياة وتتقدم الحياة على يديه فما كان الدين إلاّ هدياً ورشاداً وضع الله به الإنسان على أولى درجات المعرفة وقد جاء الإسلام فاكتملت به رسالة السماء وتمت به نعمة الله على الناس إذ فتح لهم مغاليق الكون ودعاهم إلى النظر والتأمل وعلمهم ما لا يعلمون وكان أوّل ما خاطبهم به فى خطابه لخاتم أنبيائه قوله جل وعلا :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم[٨٢]).

الإسلام والأخلاق

والأخلاق الإسلامية مما تتنزه بها الحياة عن الدنايا والشرور، ويستقيم عليها أدب النفس وأدب السلوك. والقرآن حافل بما تتحلّى به النفس من قيم الأخلاق وبما يجب أن يكون عليه سلوك البشر، وبالنهى عما يجترح من هذه القيم أو ينال منها أو يتطاول عليها أو يخدشها أو يكون سبباً من أسبابها أو يؤدّى إليها، كما نهى عما يسىء إلى البدن حفاظاً على الصحة ، وعما يسىء إلى العقل حفاظاً على سلامة الإدراك وعمّا يشوّه جسم الإنسان توقيراً للكرامة الإنسانية فى حالتى الحياة والموت.

ولسنا بصدد تعداد المثل الأخلاقية لأدب النفس وأدب السلوك فى الإسلام مماّ أجمعت عليه الأديان ولا تختلف عليه فلسفة الأخلاقيين فردّتها إلى عالم الضمير وإلى المنطق التجريدى بينما نقلها الإسلام من عالم الضمير إلى عالم الحسّ ومن التجريد إلى الواقع

---

(٨٢) العلق : ١ - ٥ .

المحسوس فكانت فرضاً من فروضه لا يكمل بدونها إيمان الإنسان ولا يستقيم بغيرها سلوك المرء ولا تقوم الحضارة الإنسانية على أساس سليم إلاّ بها، فالرحمة والبرّ والتعاطف والحياء والتواضع والفضائل على أنواعها قد تبدو من قبيل التجريدات التى تتفاوت فيها القيم وتختلف حولها المعايير والحدود، ولكن الإسلام أقام لها المعايير وقاس عليها سلوك الإنسان أمام الله وأمام الناس، فما كان منها من أدب النفس ضرب له المثل ظاهراً من واقع الحياة، وما كان منها من أدب السلوك فرض له المعايير والحدود وجعل منها جميعاً هدى الإيمان ونبراسه.

والأساس الدينى للأخلاق الإسلامية هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبما أمر به تعالى من قواعد لأدب النفس وقواعد السلوك للفرد والجماعة، فالإيمان بالله يتضمن الإيمان بكلّ ما جاء به، وحين ينبع الخير من ضمير المؤمن يتجرد من كلّ نوازع الأنانية وحب المنفعة وغرائز الشر الكامنة فى النفس البشرية، فالدين سياج الأخلاق، «ولو لم يضع الدين -كما يقول ميرزا على محمد حسين- قوانين كاملة للأخلاق لما نجح فى الارتقاء بالإنسانية أو فى منع الشرور» وحين تتجرد الأخلاق من الدين تفقد جذورها الأصيلة فى النفس الإنسانية، وهى جذور تمتدّ فى ضمير الإنسان إلى أبعد آماد تاريخه قبل أن تشرق الأرض بنور الأديان السماوية حين كان يلوذ بما يتصور من قوًى خفية ينشد الخير على يديها ويتجنب بقدرتها الشرور، فهذا الوازع القديم فى ضمير الإنسان قد هذبته الأديان السماوية وردّته إلى الصفاء الروحى المنبعث من الإيمان بالله وبعقيدة البعث يوم تجزى كل نفس بما كسبت.

والأخلاق الإسلامية مما تتواءم مع الحياة الدنيا، ومما يقوم عليها مجتمع إنسانى سليم فليس فيها إغراق أو تطرف يحملها إلى عالم التجريد وليس فيها ما يحمل الإنسان فوق طاقته، وإنما هى من واقع حياة المسلم ما تستقيم معها حياته على الخير، ويستقيم بها عقله على الإيمان. إذ جمع الإسلام بين المثالية الرفيعة والواقعية التى تتفق مع العقل فلا يغفل الطبيعة البشرية ولا يسرح فى تهويمات ضالّة ملتوية، بعيداً عن الحقيقة والواقع، بل ينشد كسائر الأديان السماوية السموّ بالإنسانية إلى ذروة الكمال المطلق، ولكنه إذا حقق ما ينشد أو حاول تحقيقه يعلم تماماً أن الإنسان قد جبل على النقص فى حياته الدنيا، فإذا لم يقل إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فأدر له خدّك الأيسر، وقال بمعاقبة المسىء بمثل ما عاقب به، فقد رغب أشدّ الترغيب فى العفو عن المسىء والإحسان إليه ودرء السيئة بالحسنة فى قوله تعالى: (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم [٨٣]).

---

(٨٣) التغابن : ١٤ .

وإذا أردنا أن نلتمس عبارةً جامعةً للأخلاق الإسلامية التمسناها فى قوله تعالى:
(كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله[٨٤]).
فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله هى الثلاثة قوام الأخلاق الإسلامية، فإذا ترجمناها إلى واقع الحياة ومحسوسها لأسعفنا القرآن بتفصيلها فى قوله تعالى:
(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله[٨٥]).
(يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً[٨٦]).
(ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلّةٌ ولا شفاعة[٨٧]).
(ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى..[٨٨]).
(إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم..[٨٩]).
(وما أدراك ما العقبة . فكّ رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة[٩٠]).
(وآت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل ولا تبذّر تبذيراً[٩١]).
(ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولا وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم[٩٢]).
(وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن..[٩٣]).
(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[٩٤]).
(ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[٩٥]).
(وقضى ربّك ألّا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما

---

(٨٤) آل عمران : ١١٠ .
(٨٥) التوبة : ٧١ .
(٨٦) الإنسان : ٧ - ٩ .
(٨٧) البقرة : ٢٥٤ .
(٨٨) البقرة : ٢٦٤ .
(٨٩) البقرة : ٢٧١ .
(٩٠) البلد : ١٢ - ١٧ .
(٩١) الإسراء : ٢٦ .
(٩٢) الإسراء : ٣٤ - ٣٥ .
(٩٣) الإسراء : ٥٣ .
(٩٤) الأعراف : ١٩٩ .
(٩٥) البقرة : ١٧٧ .

أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً[٩٦]).

(ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً..[٩٧]).

وفى النهى عن المنكر:

(ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة وساء سبيلاً . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلاّ بالحقّ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنّه كان منصوراً[٩٨]).

(ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً[٩٩]).

(ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم..[١٠٠]).

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبيرٌ بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها..[١٠١]).

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه إنّ الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون[١٠٢]).

(ولا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن[١٠٣]).

(قل إنما حرّم ربّى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون[١٠٤]).

(ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين[١٠٥]).

(إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلّكم تذكرون[١٠٦]).

وتلهمنا الأخلاق الإسلامية بما يمكن أن نسميه ثقافة أخلاقية بصفتها أساساً لأدب النفس وأدب السلوك وأساساً لحضارة إنسانية تقوم على التزاوج بين الروح والعقل فحيث يسمو الخلق الإسلامى بمبادئه إلى أعلى ما ينشده الإنسان من المثالية الروحية نراه يوفق بين ما هو أبدىّ وما هو متغير، فحيث يتصل الإنسان بالذات الإلهية اتصال إيمان ويقين فإنه

---

(٩٦) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .
(٩٧) الأحقاف : ١٥ .
(٩٨) الإسراء : ٣٢ ، ٣٣ .
(٩٩) الإسراء : ٣٧ .
(١٠٠) طه : ١٣١ .
(١٠١) النور : ٣٠ ، ٣١ .
(١٠٢) الأنعام : ١٢٠ .
(١٠٣) النساء : ٣٢ .
(١٠٤) الأعراف : ٣٣ .
(١٠٥) الأعراف : ٥٦ .
(١٠٦) النحل : ٩٠ .

يخلص لما هو أبدىّ دائم لا متناهى غير متصل بحدود الزمان والمكان، وحيث يؤمن بآياته فإنه يؤمن بما فيها من تنوّع وتغير ويتكيّف معها فى تنوّعها ويتواءم معها فى تغيرها ولكنها فى تغيرها لابّد وأن تخضع لما هو أبدى منها، فالمبادئ والمثل لا تتغير فهى أبدية دائمة ولكن الصورة التى تلتزم بها وتتفاعل معها هى التى تتغير فالأخلاق الإسلامية فى ثباتها تثبت قدرتها على التطور بما تلهم من ثقافة أخلاقية متجدّدة مع الزمان والمكان فى ضوء يقينها الثابت الذى لا يتغير.

وهذه القدرة على التوفيق بين ما هو أبدى وما هو متغير هى التى حملت الشاعر الفيلسوف محمد إقبال على القول « بأن نبّى الإسلام يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث فهو بتاريخ رسالته ومصدرها من العالم القديم وبالروح التى انطوت عليها من العالم الحديث » .

« وهذه القدرة ذاتها هى التى تجعل من الأخلاق الإسلامية أخلاقًا صالحةً لكل زمان ومكان، وهى مصداق لختام النبوّة نفسها ليقينها من استحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على ما يقوده، وعلى الإنسان كى يدرك كمال معرفته بنفسه ينبغى أن يترك ليعتمد على وسائله فى إدراكها. وإن خلو الإسلام من الرهبنة ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام وإصراره على النظر فى الكون والوقوف على أخبار الأوّلين من مصادر المعرفة الإنسانية كلّ ذلك صور مختلفة لفكرة ختام النبوه ».

وبقدر ما تتواءم المثل الإسلامية مع كلّ ما هو دائم وما هو متغير بقدر ما تتواءم مع الفرد فى ذاته والفرد بوصفه عضواً فى مجتمع، فلا تضحى بالفرد فى سبيل الجماعة ولا تطلق للفرد عنان الحرية ليستغل الآخرين ويستعلى عليهم فإذا استقام الإنسان تحرّر من الأنانية وتحرر من الطغيان وتحرر من العنف وتحرر من عبادة الفرد وتحرر من الخوف والعوز. فهى أقوم مثال للحياة فى كمالها المطلق، وللدولة بوصفها مثالاً للضمير الاجتماعى للأمة فى قوته وتماسكه.

والأخلاق الإسلامية التزام أكثر منها أوامر ونواهى فهى تقوم على الإيمان بالله وحب الله وطاعة الله والولاء لله فما لم يكن الإيمان أساس الطاعة والحبّ أساس الولاء لم يكن القهر حافزاً على الالتزام، لأنه إذا ما غاب القهر غاب معه الالتزام. « فالالتزامات الأخلاقية فى الإسلام – كما يقول ميرزا محمد حسين – ترمى إلى تزويد المؤمن بصفات الله الحسنى والارتفاع به فوق الشك والحيرة التى تسيطر على من يزاول حياة لا قيود فيها ولا التزام » ولهذا يرى «ول ديورانت» أن «القانون والأخلاق فى القرآن شىء واحد. فالسلوك الدينى

يتضمن السلوك الدنيوى والقرآن يشمل قواعد للأداب وصحّة الجسم والزواج والطلاق ومعاملة الأبناء والعبيد والحرب والسلم، وللقرآن - كما يقول - أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى إذا أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الاجتماعية وحضّهم على اتباع القواعد الصحية وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ونفوسهم من الظلم والقسوة وحسّن أحوال الأرقاء وبعث فى نفوس الأذلاء الكرامة والعزة وطبع المسلمين - إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين - على الاعتدال والبعد عن الشهوات إلى حدّ لم يكن له أى مثيل فى أية بقعة من بقاع لعالم يسكنها الرجل الأبيض. وعلّم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ويتحمّلوا قيودها فلا شكوى ولا ملل وبعثهم فى الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كلّه، وشرح القرآن الدين وحدّده تحديداً لا يجد المسيحى ولا اليهودى الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله فالأخلاق الإسلامية هى التى فتحت القلوب المغلقة للإسلام فلم تمض بضع سنوات على بعث الدعوة حتى أصبح الإسلام عقيدة الملايين من البشر ولم يمض قرن من الزمان حتى ارتفعت راية الإسلام فى أرجاء العالم القديم وأوقع أبناء البادية الهزيمة بجيوش كسرى وقيصر » .

وما زال الإسلام بما فيه من مزايا يقدمها لبنيه - كما يقول ولفرديلنت فى كتابه مستقبل الإسلام - قادراً على اجتذاب الناس إليه « وهى مزايا تفوق كلّ ماتستطيع المسيحية والحضارة الأوربية أن تقدمه. فبينما لا يجد المبشّر وهو يتعثر بدعوته وسط الأدغال الأفريقية ما يمنحه للأفريقى الأسود إلّا ما يمنيه به من أخوة فى الحياة الآخرة ويضن عليه بالكرامة ولا يقبل أن يجالسه أو يتزوج من زنجية يتقدم المبشر المسلم من أبناء مراكش فيقول للزنجى تعال أجلس معى خذ ابنتى زوجة لك واعطنى ابنتك فكلّ من ينطق بشهاده الإسلام كفء لى فى الدنيا والآخرة » ويقول : « إنه لامفر من أن تصبح أفريقية لقمةً سائغةً للإسلام وما ذلك ببعيد » .

وما الحياة بأشد حاجة إلى تعاليم الإسلام كحاجتها اليوم، إذ عجزت المسيحية الغربية عن أن تمدّ حضارة الغرب - حضارة العلم والآله والسيطرة على أسرار الطبيعة - بالقيم الروحية التى تمنحها القوّة والاستمرار.

مراجع للبحث والاطلاع

١ - المراجع العربية

(ا) المعاصرة :

* طرق القضاء فى الشريعة الإسلامية أحمد إبراهيم
* فجر الإسلام أحمد أمين
* ضحى الإسلام أحمد أمين.
* ظهر الإسلام أحمد أمين.
* الطاقة الإنسانية أحمد حسين
* فى الإيمان والإسلام أحمد حسين.
* الأمة الإسلامية أحمد حسين
* تاريخ الإنسانية أحمد حسين
* تاريخ الحضارة الإسلامية أحمد زكى باشا
* النظريات السياسية الإسلامية د. ضياء الدين الريس
* حرية الفكر فى الإسلام عبد المتعال الصعيدى
* التوجية الأدبى للعبادات فى الإسلام عبد المتعال الصعيدى.
* السياسة الإسلامية فى عهد النبوة عبد المتعال الصعيدى
* السياسة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين عبد المتعال الصعيدى
* الإسلام دعوة عالمية عباس محمود العقاد
* الديمقراطية فى الإسلام عباس محمود العقاد
* الفلسفة القرآنية عباس محمود العقاد.
* الله عباس محمود العقاد.
* حياة محمد د. محمد حسين هيكل
* الصديق أبو بكر د. محمد حسين هيكل
* الفاروق عمر د. محمد حسين هيكل
* الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة د.محمد حسين هيكل

* جاك جاك روسو	د.محمد حسين هيكل
* فى الأدب الجاهلى	د. طه حسين
* الفتنه الكبرى	د. طه حسين
* الشيخان	د. طه حسين
* على وبنوه	د. طه حسين
* حديث السندناد القديم	د. حسين فوزى
* السياسة والإستراتيجية فى الشرق الأوسط	د. حسين فوزى النجار
* وحدة التاريخ العربى	د. حسين فوزى النجار
* الفكر السياسى الحديث	د. حسين فوزى النجار
* التاريخ والسير	د. حسين فوزى النجار
* أرض الميعاد	د. حسين فوزى النجار
* هيكل وحياة محمد	د. حسين فوزى النجار
* التطور التاريخى لبنى إسرائيل	د. عماد عبد الحميد النجار
* قصص الأنبياء	الشيخ عبد الوهاب النجار
* الخلفاء الراشدون	الشيخ عبد الوهاب النجار
* بحوث فى تاريخ الفكر الاقتصادى (محاضرات)	د. سعيد النجار
* تاريخ الآداب العربية كارل بروكلمان وترجمةد. عبد الحليم النجار	
* الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام	د.عبد الرحمن بدوى
* محمد المثل الكامل	محمد أحمد جاد المولى
* الإسلام دين الفطرة	الشيخ عبد العزيز جاويش.
* الإسلام الصحيح	محمد إسعاف النشاشيبى.
* نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها	أحمد تيمور باشا
* تاريخ التمدن الإسلامى	جورجى زيدان
* بناة النهضة العربية	جورجى زيدان
* تاريخ الإسلام السياسى ٣ أجزاء	د. حسن إبراهيم حسن

* النظم الإسلامية	د. حسن إبراهيم حسن
* السياسة الشرعية	الشيخ عبد الوهاب خلاف
* الخلافة أو الإمامة العظمى	السيد محمد رشيد رضا
* تاريخ الأستاذ الإمام	السيد محمد رشيد رضا
* تفسير المنار	السيد محمد رشيد رضا.
* أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة	رفيق العظم بك.
* الأخلاق عند الغزالى	د. زكى مبارك
* التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق	د. زكى مبارك
* فى ظلال القرآن	سيد قطب
* العدالة الاجتماعية فى الإسلام	سيد قطب
* نحو مجتمع إسلامى	سيد قطب
* الإسلام ومشكلات الحضارة	سيد قطب
* أبو عثمان الجاحظ	د. محمد عبد المنعم خفاجى.
* لماذا تأخر المسلمون	الأمير شكيب أرسلان.
* القضاء فى الإسلام	د. عطية مصطفى مشرفة.
* الإسلام وأصول الحكم	على عبد الرازق.
* نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم	الشيخ محمد الخضر حسين
* حقيقة الإسلام وأصول الحكم	الشيخ محمد بخيت
* العقيدة والشريعة الإسلامية جولد سيهر	ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وآخرين
* تاريخ الفلسفة الإسلامية دى بور	وترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة.
* حاضرالعالم الإسلامى	ستودارد وترجمة عجاج نويهض . وتعليق شكيب أرسلان.
* تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية	الشيخ مصطفى عبد الرازق.
* تاريخ الأمم الإسلامية	الشيخ محمد الخضرى.
* تاريخ التشريع الإسلامى	الشيخ محمد الخضرى.
* الإسلام والنصرانية	الإمام الشيخ محمد عبده.
* رسالة التوحيد	الإمام الشيخ محمد عبده.
* الإسلام فى عصر العلم	محمد فريد وجدى
* الإسلام دين عام خالد	محمد فريد وجدى

* دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدى
* النظريات والمذاهب السياسية	د. مصطفى الخشاب
* موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه	أبو الأعلى المودودى
* الرسالة الخالدة	عبد الرحمن عزام
* بطل الأبطال	عبد الرحمن عزام.
* أزمة الفكر السياسى فى الإسلام	د. عبد الحميد متولى.
* نظام الحكم فى الإسلام	د. محمد يوسف موسى.
* عصر المأمون	محمد فريد الرفاعى.
* فتح العرب لمصر	بتلر وترجمة محمد فريد أبو حديد.
* الخلافة والإمامة فى الإسلام	عبد الكريم الخطيب.
* السياسة عند العرب	عمر أبو النصر.
* خلفاء محمد	عمر أبو النصر.
* مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام	محمد عبد الله عنان
* تراجم إسلامية	محمد عبد الله عنان
* ابن خلدون	محمد عبد الله عنان
* دولة الإسلام فى الأندلس	محمد عبد الله عنان.
* الديمقراطية فى الإسلام	الدكتور عثمان خليل عثمان
* التشريع الإسلامى الجنائى	عبد القادر عودة.
* فلسفة التشريع الإسلامى	فتحى رضوان.
* الإسلام والحضارة العربية	محمد كرد على.
* الإدارة الإسلامية فى عز العرب	محمد كرد على.
* تنظيم الإسلام للمجتمع	الشيخ محمد أبو زهرة.
* تاريخ المذاهب الإسلامية	الشيخ محمد أبو زهرة.
* العلاقات الدولية فى الإسلام	الشيخ محمد أبو زهرة.
* التكافل الاجتماعى فى الإسلام	الشيخ محمد أبو زهرة.
* تجديد الفكر الدينى فى الإسلام	محمد إقبال وترجمة عباس محمود.
* الإسلام والتجديد فى مصر	تشارلس آدمز وترجمة عباس محمود.
* الحرية والديمقراطية والعلم	همايون كبير وترجمة عثمان نوية.
* موجز تاريخ العالم	هـ .ج .ويلز وترجمة عبد العزيز جاويد.

* الأبطال	توماس كارليل وترجمة محمد السباعى
* الدعوة إلى الإسلام	توماس أرنولد. وترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرين.
* السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية	فان فلوتن وترجمة د. حسن إبراهيم حسن.
* المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن	جولد سيهر وترجمة د. على حسن عبد القادر.
* الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية	د. محمد جمال الدين سرور
* الإعلام فى صدر الإسلام	الدكتور عبد اللطيف حمزة
* المعجم المفهرس للقرآن	محمد فؤاد عبد الباقى
* مثل عليا سياسية	برتراند رسل وترجمة فؤاد كامل
* السلطة والفرد	برتراند رسل وترجمة محمد بكير خليل
* آمال جديدة فى عالم متغير	برتراند رسل وترجمة عبد الكريم أحمد
* القانون الدولى العام	على ماهر بك
* قصة الحضارة	ول ديورانت وترجمة محمد بدران بإشراف جامعة الدول العربية
* رسالة إلى نيقوماخوس	أرسطو وترجمة أحمد لطفى السيد
* الكون والفساد	أرسطو وترجمة أحمد لطفى السيد
* السياسة	أرسطو وترجمة أحمد لطفى السيد

(ب) من التراث :

* الكامل فى التاريخ	لابن الأثير
* الفرق بين الفرق	البغدادى أبو منصور
* فتوح البلدان	البلاذرى.
* كتاب الوزراء والكتاب	الجهشيارى وتحقيق مصطفى السقا وآخرين.
* الفصل فى الملل والأهواء والنحل	ابن حزم
* المقدمة	ابن خلدون
* وفيات الأعيان	ابن خلكان.

* تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة — السيوطى.
* حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — السيوطى.
* الملل والنحل — الشهرستانى.
* الفخرى فى الآداب السلطانية — ابن طباطبا.
* السياسة الشرعية — ابن تيمية.
* الحسبة فى الإسلام — ابن تيمية
* مناهج السنة النبوية — ابن تيمية.
* تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء — هلال الصابى.
* الإمامة والسياسة — ابن قتيبة أبو محمد.
* مروج الذهب — المسعودى.
* تاريخ الأمم والملوك — الطبرى ، محمد بن جرير.
* اختلاف الفقهاء — الطبرى ، محمد بن جرير.
* تفسير الطبرى — الطبرى ، محمد بن جرير.
* المنقذ من الضلال — الغزالى ، أبو حامد.
* التبر المسبوك فى نصيحة الملوك — الغزالى ، أبو حامد.
* إحياء علوم الدين — الغزالى أبو حامد.
* كتاب الولاة وكتاب القضاة — الكندى.
* الأحكام السلطانية — الماوردى.
* الأحكام السلطانية — لأبى يعلى.
* لسان العرب — ابن منظور.
* كتاب الفهرست — ابن النديم.
* كتاب فرق الشيعة — النوبختى أبو محمد.
* كتاب البلدان — اليعقوبى أحمد بن أبى أيوب.
* تاريخ اليعقوبى — اليعقوبى أحمد بن أبى أيوب.
* كتاب الخراج — أبو يوسف يعقوب.
* فهرست كتب الشيعة — الطوسى.
* نيل الأوطار — الشوكانى.
* اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا — المقريزى.
* المواعظ والاعتبار فى ذكرى الخطط والآثار — المقريزى.

* كتاب التاج فى أخلاق الملوك	الجاحظ أبو عثمان وتحقيق أحمد زكى باشا.
* كتاب التنبيه والإشراف	المسعودى.
* الطبقات الكبرى	ابن سعد.
* المغازى	الواقدى أبو عبد الله.
* كتاب قوانين الدواوين	ابن مماتى نشرة الدكتور عزيز سوريال عطية.
* زبدة كشف المسالك	الطاهرى.
* كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين	ابو شامة المقدسى.
* شرح العقائد النسفية	التفتازانى سعد الدين.
* مختصر سياسة الحروب	ابن هرثمة صاحب المأمون.
* الإشارة إلى من نال الوزارة	ابن منجب.
* قانون ديوان الرسائل	ابن منجب.
* نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب	القلقشندى محمد.
* صبح الأعشى فى صناعة الإنشا	القلقشندى أبو العباس.
* المناهج وشرحه	النووى والرملى.
* مقالات الإسلاميين	الأشعرى.
* كليلة ودمنة	ابن المقفع.
* كتاب الديات	الضحاك والشيبانى.
* صحيح مسلم	بشرح النووى.
* فتح البارى بشرح صحيح البخارى	ابن حجر العسقلانى.

* سيرة سيدنا محمد رسول الله المعروفة بسيرة ابن هشام.

(جـ) المراجع الإنجليزية :

Adams, Charles :

— Islam and Modernism نقله إلى العربية عباس محمود

Arnold, Sir Thomas W.

— The Preaching of Islam.

نقله إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون.

— The Caliphate.

Ameer Ali, Syed:

— The Spirit of Islam.

A Shart History of the Saracens نقله إلى العربية رياض رأفت

Gibbon, Edward:

— The History of the decline and Fall of the Roman Empire.

نقله إلى العربية أحمد نجيب هاشم ومحمد على أبو درة

Guillaume & Arnold:

— The Legacy of Lslam.

Hitti, philip K.:

— History of the Arabs.

Hell, Joseph :

— Arab Civilisation : translated by Khuda Bukhsh.

Gibb, H.A.R. ;

— Mohammedanism.

— Trends of Islam.

— Studies on Islamic Civiliztion.

Margoliouth, D.S.:

— Mohammad and the rise of Islam.

Donaldson, D.M.:

— The Shiite Religion.

Fitzgerald, V.:

— Muhammedan Law.

Goba, Khaled :

— The Prophet of the Desert.

Irving, Washington

— Life of Mahomet.

O'Leary, De Lacy :

— AShort History of the Fatimid Khaliphate.
— Arabia Before Muhammad.
Lane-pole, Stanley:
— The Muhammadan Dynasties.

نقله إلى العربية على الجارم بك

Mez, Adam:
— The Renaissance of islam.
Muir, w, Temple:
— the Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall.
— Life of Mohammed.
Carlyle, Thomas:

نقله إلى العربية محمد السباعى

— Heroes and Hero Worship.
Macdonald, D.B.:
— Development of Muslim Theology, Jurisprudence, and Constitutional theory.
Nicholson, R. A.:
— The Mystics of Lslam
— Literary History of the Arabs
— Studies in Islamic Mystecism.
lewis , Barnard:
— The Origins of Islamism
Kremer, Alfred Von:

نقله عن الألمانية

— The Orient under the Caliphs. (Khuda bukhsh)
Brockelmann, Carl:
— History of the islamic Nations
Fayzce, Asaf Ali:
— Outlines of Mohammadan Law.
Wells, H.G.:
— Outline of the world History.
Striplin, G.W.F.:
— Ottoman Turks and Arabs
Maulana Mohammed Ali:
— The Early CaliphateŒ
Butler, Alfred J.:

نقله إلى العربية محمد فريد أبو حديد

— The Arab Conquest of EGYPt.

Russel, Bertrand:

— History of Western philosophy.

De Tocqueville, Alexis.

— Democracy in Americe.

— Principles of Social Recoustruction.

Lasky, H.J.:

— Grammer of politics.

— An Introduction to politcs.

— Political Thought in Englund.

Bury, J.:

— History of Freedom of thought.

Sabine, George:

— AHistory of Political Theory.

Creaves, H.R. G:

— The Foundatiou of political Theory.

Lorimer:

— Institutes of the Law of Nations.

Oppenheim L.:

— International Law.

Laurence, T. J.:

— The Principles of International Law.

— Historians History of the World.

— The Encyclopaedia of Islam.

نقلها إلى العربية زكى خورشيد وعبد الحميد يونس والشنتناوى.

(د) المراجع الفرنسية:

Goldziher, Ignaz:

— Le Dogma et la Loi de L'Islam «Felix Asin» عن الألمانية ترجمة

Dozy, R.P.A.:

— Histoire des Musulmans d'Espagne.

— Essai Sur l'Histoire de l'Islamisme.

Sanhoury, Dr. A.A.:

— Le Califat. paris 1926.

رسالة الدكتوراه للدكتور عبد الرازق أحمد السنهورى.

Van Vloten, G. :

— Recherches sur la Domination Arabe, le Chutisme et les Croyances Messianiques sous le Khalifat des Omayades.

نقله إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن.

Demombynes, Gaudfroy:

— Les Institutions Musulmanes.

De Perceval, Caussin:

— Essai sur L'Histoire des Arabes.

Dermenghem, Emile:

— La Vie de Mahomet.

Le Bon, Gustave:

— La Civilistion des Arabes. نقله إلى العربية عادل زعيتر.

Sédillot, L.B. :

— Histoire Générale des Arabes.

Dawson, Christopher :

— Les Origines de l'Europe et de la Civilisation Européene.

Berdeaux, Georges :

— Traité de Science Politique 7 Volumes.

Rousseau, J.J. :

— Du Contrat Social.

Cardet Louis :

— La Cité Musulmane.

Carra de Vaux :

— Les Penseurs de l'Islam.

Massignon :

— L'Annuaire du Monde Musulman.

Eugéne, Jung :

— Le reveil de l'Islam et des Arabes.

Michaud :

— Histoire des Croisades.

D'Ohsson :

— Tableau Général de l'Empire Ottoman.

حاشية : أشرنا فى سياق البحث إلى ما تناولناه من المراجع الأساسية وما استشهدنا به منها منسوباً إلى أصحابه أما ما عدا ذلك فقد أغفلناه إما لتكراره وإما لأنه لم يأت بجديد وإن أفاد فى التحقيق والاستدلال وقد أوردناها جميعاً فى قائمة المراجع.

المؤلف